1012
١٠١٢
روايات عبير
سلسلة قصص و
دار النحاس

طقوس الحب

ريبيكا وينترز

مكتبة لبنان الدولية
www.liilas.com

«لماذا تظاهرت بحبي؟»

أتى صوت كورتني مليئاً بالألم: «هل تجد متعة مريضة في اهانتي؟ كنت قد اعطيتك ما تسعى إليه. كل ما عليك، هو أن تطلب!»

زم فم جوناس بغضب. «إن لم أكن واهماً في حبك، فهل تسمحين بإخباري ما الذي تظنين أنني أسعى إليه؟»

www.liilas.com

الفصل الأول

«كورتني؟» أوقف الصوت الرجولي العميق خطوات كورتني بلايك في مركز ميكوسوكي الثقافي. جوناس لم تقدر أن تصدق. فاضطرت إلى الاستناد على درابزين السلم، الذي كان يفضي إلى الطائرة المائية.

كان يعمل في واشنطن، العاصمة، على انجاز قضية هامة، تسوي أوضاع أراضي القبيلة. وكان مفترضاً أن يتغيب للفترة أسبوع آخر على الأقل! كانت تظن أنها تملك وقتاً كافياً لترك عملها في المؤسسة القانونية، وتحضّر لرحلتها إلى الغلايدس قبل عودته.

لقد سبّب لها ألم خيانته الكثير من الإضطراب. لم تكن تريد أن تراه، ولا أن تكلمه من جديد. هل قطع رحلته وعاد إلى المركز لأنه كان وسيلة ضرورية لكي يكسب حظوة لدى كبار السن في القبيلة؟ كانت تؤمن خلال علاقتهما بغباء أنه متيّم بها.

اجتاحتها أمواج عارمة من الإذلال، لكنها لم تكن لتريحه وتحمله على معرفة تأثير وجوده عليها. وبعد أن تحكمت في معالم وجهها جيداً، كي لا تُظهر نحوه أي عاطفة، التفتت لمواجهته. وبسبب طول قامتها المتوسط، رفعت رأسها لتتمكن عيناهما من استيعاب قامته، التي تربو على ست أقدام.

كان شعره الطويل قليلاً، قاتماً كجناحيّ عجهوم، كان

يحلّق في الفضاء في تلك الأثناء. تمايلت بضع شعيرات على جبهته البرونزية مع النسائم الناعمة.

«جوناس.» أجابت ببرود وهي تقارم الافتتان بعينيه اللتين كانتا تعكسان اللون الأخضر للغلايدس المحيطة بهما.

أدخل يديه اللتين لوّحتهما الشمس في جيبتي بنطاله الأبيض الفضفاض، وتقدم خطوة نحوها. وأنزل عينيه نحو حذائها الرياضي ونقلهما إلى ساقيها الجميلتين تحت سروال الجينز الباهت، وإلى تفاصيل جسدها، وثبتهما في النهاية إلى ضفيرة حمراء كانت تتدلى على كتفها اليمنى. كانت هذه النظرات الحميمة في الماضي. تدفعها للارتماء بين ذراعيه مباشرة.

«إنه لعرض أن أعلم أنك لم تنسي اسمي بعد.» وكان صوته متوتراً يحمل غضباً مكتوماً. «ما الذي يجري يا كورتني؟ عندما رأيتك منذ أسبوعين في المطار، اعتقدت أن علاقتنا تعني لكِ ما تعنيه لي. فلماذا أسرعت في المغادرة دون أن تقدمي أي تفسير؟ إن كنت تظنين أن بإمكانك مراوغتي فأنت مخطئة.»

«لا.» صمتت، وراحت تختار كلماتها بحذر: «لم أفكر هكذا. لكنني لم أر مبرراً لاستمرار علاقتنا. لقد تلقيت منحة للبحوث أثناء سفرك من جامعة أوكلاهوما. وبما أنني لم أعد بحاجة للعمل في تنسيق الكلمات لجعل الأضداد تلتقي، قررت الرحيل.»

لم تحاول لوما وينستون، المساعدة في مؤسسة بال هاربور القانونية، التي تحظى بالإعتبار، والتي يملكها

جوناس ووالده سايلاس باين، أن تخفي سعادتها عندما قبّلت كورتني استقالتها. كانت تسأل كورتني دائماً عن الوقت الذي ستترك فيه وظيفتها، فقد كانت تعمل بشكل مؤقت.

أما سايلاس فقد تفهّم سبب قرارها المفاجيء، وكان يمتدح عملها الجيد، وأسف لرحيلها.

إسودّ وجه جوناس الجميل. «ما الذي حدث لكي تتركي عملك بلا سابق انذار، وتغادري شقتك بعد ذلك بأقل من أربع وعشرين ساعة؟»

«لقد أجبتك على هذا السؤال قبل قليل.» قالت بمرارة، كادت أن تتمكن من اخفائها، وتذكرت كيف أُخذت بسهولة باهتمامه المتملّق بها. فهي تشعر بالإهانة، لقد كانت تحبه لدرجة أنها لم تستطع أن تفهم أنه كان يعاملها بتنازل وشفقة، خلال علاقتهما التي دامت شهرين. كانت مشاعرها نحوه من البداية، قوية مما أعماها عن نواياه الحقيقية.

حدّق فيها لدقيقة فبدت طويلة ومزعجة، ضاقت عيناه الخضراوان، بدتا يقظتين وراء الرموش السوداء. «لا تخادعيني، يا كورتني.»

توترت عضلات وجهها. «أنا لا أخادع. هذا ليس من طباع الميكوسوكي.» لمعت في ذهن كورتني صورة لورا، وهي تتمنى لها بخبث، أن تنجح في أبحاثها في جامعة أوكلاهوما، مما زادها غضباً. «عليك الآن أن تعذرني.»

ولكن حينما حاولت الابتعاد، وقف في طريقها. فتوردت خديه «لن تذهبي إلى أي مكان، قبل أن أحصل على أجوبة.»

بإمكان جوناس أن يكون خصماً مخيفاً، كما يمكن لمن

www.liilas.com

سبق وواجهه في المحاكم أن يؤكد ذلك، لكنها لم تكن لتخضع.

«يبدو أنك لم تفهم.» قالت بصوت ضعيف، كي لا تجتذب مزيداً من الانتباه: «ليس هناك ما أضيفه. لم أعد على جدول الرواتب.»

ضمّ كلتا يديه بشكل قبضتين، وراح شريان صغير في صدغه ينبض. «بعد كل ما تقاسمناه في الأشهر القليلة الماضية، لا تظنني أنني ساصدق ما تقولين. أتعتقدين أنني سأدعك تخرجين من حياتي؟ أنكري ما شئت لكننا مررنا بتجربة نادرة ورائعة... تجربة تتجاوز عالم الماديات... تجربة لم أعرفها مع امرأة أخرى وأنا أعلم...» اختنق صوته «... إنك تشعرين بالشيء نفسه.»

«أنت تقول هذا للمرأة غير العناسبة.» استدارت لترحل لكنه جذب ساعدها. فاحست تلقائياً بنبضها يتردد كجناحي الفراشة الأرجوانية، التي كانت ترفرف فوقهما.

«ما معنى هذا الكلام بحق الجحيم؟»

«دعني.» قالت بلهجة آمرة متجاهلة سؤاله: «لدي عمل أقوم به.»

«أي عمل؟»

«تشغيل الطائرة المائية.»

«أنت مرشدة؟» سألها بشك، وهو يشد بقبضته، ويتأمل السياح: «ظننتك لست بحاجة لعمل آخر.»

«فعلاً.» قالت، وهي تصارع لكي تبقى هادئة: «أنا أساعد أحد الأصدقاء. والآن دعني أمضي.»

«لست بالكائنة البارعة، يا كورتني. أعلم أنك استنفدت

معظم مدخراتك، إن لم يكن كلها، وذلك قبل أن أغادر إلى واشنطن. ولكنك رفضت أن أقدم لك قرضاً.» وهنا استدار فمه الشهي بالازدراء. «هل تتوقعين مني أن أصدق أن هذا العمل يعطيك راتباً موازياً للذي كنت تتقاضينه في المؤسسة؟»

أخذت نفساً عميقاً، وقالت: «افترض أن مولوداً في عائلة ثرية، يجعلك تقيس كل شيء بمقياس المال.» كان صوتها ملغماً بالسخرية.

«لا يمكن العيش من دون المال، يا كورتني. هذا العمل في مجال السياحة، لن يعطيك أكثر من ألف دولار في الموسم.»

«سبق وقلت لك إن لا علاقة للمال بكوني أعمل بدلاً من هنري لبضعة أيام. ولكن، لمعلوماتك، هذا النشاط السياحي يساعد على تأمين القوت للكثير من الهنود. ولكن أرى أن اهتمامك بهذا الموضوع، يكاد يكون معدوماً.»

لمعت عينا جوناس ببريق عدواني، فيما كان يترك ذراعها. لم يسبق لها قط أن رأته غاضباً على هذا النحو. كان صمته ينذر بسوء أشد مما لو كان قد أجابها.

مضت مسرعة، وهي خائفة من غضبه، ثم تأوهت حين لاحظت أنه يلحق بها. «عليك أن تنسي كل خططك الرامية إلى التخلص مني.» هددها بصوت بارد جعلها ترتعد.

ومما زاد من خوفها، أنه جلس قرب زوجين مسنين على أحد المقاعد البيضاء. وأخذ بعد ثوان قليلة يتبادل الحديث معهما، ظناً منه أنهما سياح.

صعدت كورتني بخطى غير ثابتة إلى مقعد القيادة، وهي تلاحظ أن جوناس صوب نظرات ثاقبة عليها.

www.liilas.com

أحصت تسعة سياح، لكنها لم تستطع أن تفكر فيهم، بسبب جوناس. لقد أقلقها وجوده إلى درجة ظنت فيها أنها لن تستطيع القيام بالرحلة، وربما ستطلب نهاية الرحلة شرحاً كاملاً، وذلك سيكون وضعاً محرجاً للغاية.

بعد أن تنحنحت تنظف حنجرتها قالت: «نهار سعيد، أيها السيدات والسادة. أنا كورتني وساكون في هذه الرحلة مرشدتكم إلى موطن با - هاي - أدكي، وهي كلمة تعني بلغة هنود السمينول. «نهر العشب.» برغم أننا لا نزال عند ضواحي محمية أفرغلايدس الوطنية، سوف نعبر في الداخل أراضي ممائلة، لذا اجلسوا براحتكم واستمتعوا بالرحلة.»

كانت ابتسامة جوناس الباردة تسخر من كلماتها، سأل: «هل الرحلة مأمونة؟» لفت سؤاله نظر الجميع، فيما كان ينظر إلى مجموعة من التماسيح قرب الضفة، تبدو ككومة دواليب قديمة.

تشنجت كورتني، وشعرت بالتحدي. لقد عكست سخريته الغضب الذي كان يحتمل في نفسه، ورغبته في معاقبتها. وكان في هذا المزاج قادراً على قول أي شيء وفعل.

تدفق الأدرينالين في عروقها، وراحت تبتسم لجميع المسافرين... إلا جوناس، الذي كان يحدق بقسوة. «سوف نتحرك بسرعة بالاتجاه المعاكس، لذا لا داعي للخوف.» كانت تتكلم بهدوء، وشغّلت المحرك.

«أعتقد أن سرعة التماسيح يمكن أن تصل إلى خمسة وثلاثين ميلاً في الساعة.» كانت لهجتُهُ هجومية.

أخذت نفساً عميقاً. «صحيح، يمكنها في بعض الأوقات

أن تصل سرعتها إلى هذه الدرجة. وصحيح أيضاً أن الفكين الضخمين لكل تمساح يمكن أن يضغطا بقوة ألف رطل في البوصة المربعة. لكنها تبتعد لدى سماعها صوت المراوح. لذا، سوف نتحاشى المنطقة التي سنرتادها. هل هناك من يود أن يسأل عن التماسيح قبل أن نباشر الرحلة؟»

ارتفعت عدة أيدٍ بما فيها يد جوناس. فتمكنت من الإجابة على جميع الأسئلة باستثناء سؤاله، وأفهمتهم أن عليهم الإسراع لرؤية المشاهد الخلابة قبل أن يقفل المركز.

«هل سنتمكن من مشاهدة التماسيح تتصارع؟» كان هذا سؤال طرحه أحدهم، فيما كانت الطائرة المائية تكسو المياه بسجادة من الزبد الجميل.

شغّلت كورتني بضغطة على أحد الأزرار المذياع وقالت: «إننا مقبلون على مشاهدة مشهد رائع في نهاية الرحلة.»

«هل ستتمتع بمشاهدتك تتصارعين تمساحاً؟» سأل جوناس وشبه ابتسامة ترتسم على وجهه كالذئب، مما أثار موجة من الضحك الخافت بين الرجال. «يقول المنشور الذي بين أيدينا أن بعض المرشدين يقومون بهذه اللعبة.»

كان جوناس قد بدأ يضايقها حقاً، وأحست بالحرارة تسري في وجنتيها. «إنها رياضة، بدأها الرجل الأبيض، وقد تم ثمرين رجلين من القبيلة عليها. ولمعلوماتك، إنك تبحر في أرض هنود الميكوسوكي فوق ممرات مائية قديمة، كانت قوارب الهنود تمخر في الماضي عبابها، وكان يجري حفر احداها في قطعة واحدة من خشب السرو. واعلموا أننا حين نعبر فرق الزنابق والأعشاب، فإن عمق المياه

www.liilas.com

تحتها يبلغ ست بوصات فقط، وهي تترقرق باتجاه المحيط ببطء.»

حرّك جوناس حاجبه في تحية ساخرة لجوابها التاعم. يظهر أنه قرر تغيير تكتيكه. فبدلاً من طرح المزيد من الأسئلة، استرخى على المقعد الخشبي المضلّع. لكن عينيه الخضراوين المتألقتين لم تزيحا، وهي تتكلم، عن وجهها.

كانت نظرته التي لا تتراجع، تزعجها أكثر من أسئلته. وبخلاف باقي السياح الذين أدهشتهم روعة المناظر الخلابة، كان هو مصراً على أن لا تفوته كلمة من حديثها المحضّر سلفاً... ولا حتى نظرة حائرة باتجاهه.

كان منذ الدقيقة الأولى للقائهما، قبل ذلك بعدة أشهر، يتصرف كما لو كان يريد معرفة أي شيء وكل شيء عنها. ظنت في البداية أن اهتمامه ينبع من الإعجاب الشديد، الذي كانا يكنانه لبعضهما.

واكتشفت من خلال أحاديثهما أنه سمع عنها الكثير من روزا، وهي صديقة مشتركة لهما تدير مطعماً في محمية رد مانغروف. كانت روزا صديقة لوالدة كورتني الميكوسوكية المتوفاة. وكانت بالنسبة لكورتني مثل خالة لها.

وكان يبدو أن جوناس كان يذهب في عدة مناسبات إلى المحمية بشأن أمور كانت لها علاقة بالقبيلة. وفي أثناء الزيارت التي قام بها، صادق روزا، وراح يتناول وجباته كلها في مطعمها. وقد أخبرته السيدة المسنة عن كورتني، المتخصصة بعلم الإنسان والتي كانت تقوم بأبحاثها في المحمية. كان فضوله لمعرفة ما الذي ستتضمنه أطروحة الدكتوراه التي كانت كورتني تحضرها، وهي التي دفعته للبحث عنها.

لقد جذبا بعضهما البعض بطريقة طبيعية. وكانت جازمة في أنه لا يملك دوافع خفية، حين أصر على معرفة تفاصيل تتعلق بأبيها الأبيض وأمها الهندية. فوجدت نفسها تخبره بكل ما يريد معرفته حيال ثقافة الميكوسوكي وتراثها.

لم يخطر ببالها قط أنه تعمد بناء علاقة متينة معها، لأن هدفه كان ينصب على استخدامها كوسيلة لكسب ثقة القبيلة. وكان أخبرها عن هذا في أثناء وجود جوناس قبل أسبوعين في واشنطن، حيث كان والده سايلاس ولورا كذلك.

أدخل سايلاس رأسه داخل غرفة الحاسوب، وقال: «كورتني؟ أتركي كل ما بين يديك، وتعالي إلى مكتبي لمشاركتنا في احتفال صغير. لقد سمعنا أن جوناس ربح قضية هامة، لا يزال الكثير من المواضيع عالقاً، ولن يعود قبل أسبوع. ولكن لورا وأنا مسروران جداً، ولا نريد القيام بمزيد من الأعمال الليلة.»

سرّت كورتني كثيراً كون قضية أراضي الميكوسوكي، التي دامت في المحاكم ما يناهز السنتين، وهي قضية مهمة لجوناس... ولها... قد حلّت أخيراً، لذا استجابت لدعوة سايلاس. حين اتصل جوناس بشقتها لاحقاً، قدّمت له تهانيها. كان الهاتف وسيلة الاتصال الوحيدة في ذلك الوقت بينها وبين جوناس، وكانت تنتظر اتصاله بشغف شديد كل ليلة.

كان مكتب سايلاس يغص بالمحامين والسكرتيرات الشابات، عندما دخلت كورتني، لكنه خصّها بقدح من الشراب. وبعد أن شدّت انتباه الجميع قال: «أريد من الجميع

www.liilas.com

أن يعلموا كم نقدّر مساهمة كورتني في كل هذا النجاح.»

لا بد أن ابتهاج كورتني كان بادياً، لأن لورا اقتربت منها وقالت لها، وهي تصطنع البراءة مما أزعج كورتني: «أنعلمين، كونك ميكوسوكية قد جعلك مصدراً غنياً لجوناس. لقد كان من حسن حظنا أن يُرسلك مكتب التوظيف للتعلي عندنا بشكل مؤقت.»

«اسمعا! اسمعا.» قاطعهما سايلاس بحنان.

لكن لورا أضافت: «مصادقة القبيلة كانت من أعز أهداف جوناس على قلبه دائماً. كما أن لا بد لهذه الصداقة أن تفيده حين يترشح لمنصب الحاكم. إنه لمن دواعي فخرنا أن نعلم أنك ستكونين جزءاً من مجموعة الدعم، يا كورتني.»

هز سايلاس رأسه موافقاً على كلامها، وطوق بساعده كتفي لورا بحنب. «نحن مدينون لك بالشكر. فقد أمضيت وقتاً طويلاً تعطين جوناس المعلومات الضرورية له كي يفهم خصائص قبيلة والدتك، يا كورتني. إن اهتمامه بالهنود سيكون أساسياً لحملته لحماية الأفرغلايدس. وهذا سيساعده في حملته الإنتخابية. ألا تظنين أن لورا إن وقفت بقربه ستكون السيدة الأولى في فلوريدا، وهي الجميلة والرائعة؟»

كان تبادل الأنخاب حولهم على قدم وساق. ولحسن الحظ، كان سايلاس مشغولاً بالمحامية الشقراء النشيطة. ولذلك، لم يلاحظ أن لون وجه كورتني قد تغير وأنها غادرت الإحتفال. دخلت إلى دورة المياه لتكون بمفردها، وتستوعب هذه المفاجأة.

هل كان هذا صحيحاً؟ سألت كورتني نفسها. هل كان

جوناس يهتم بها لكي يجمع المعلومات عن قبيلتها فقط؟ هل كان يخطط دائماً للزواج من لورا؟ هل كان الوقت الرائع الذي أمضياه معاً لا يعني شيئاً؟

لم تستطع أن تصدق. لكن لا بد أن هذا كان صحيحاً لأن والده أعلن ذلك أمام الجميع. هل كان جوناس لهذا السبب متحمساً ليضع نهاية للقضية أمام المحكمة؟ وعلى هذا النحو يتمكن هو ولورا من التخطيط للزواج.

عادت كورتني إلى غرفة الحاسوب، وهي في حالة الصدمة لتأخذ حقيبة يدها. وكانت تريد أن تغادر، وألا تعود مرة أخرى. وفي طريقها إلى الخارج، كانت مجبرة على المرور قرب مكتب راينور كوكيس، التي كانت تعليقاته الماكرة، وتلميحاته المغرضة، تحمله على الاعتقاد بأنه الرجل الوحيد في المؤسسة الذي يثير اشمئزازها. كانت لورا في مكتبه كالعادة. فلم تتعود كورتني على استراق السمع، لكن الباب كان مفتوحاً جزئياً، وكان حديثهما يسمع في الرواق.

«عليك أن تعطي جوناس حقه. فمصادقته لتلك الهندية الفاتنة، جعل القبيلة ملك يديه. لقد أقنعهم بمقاضاة الحكومة كي تلغي المعاهدة القديمة بشأن الأراضي. إجمالاً ندر عليهم... عشرين مليوناً من الدولارات. لا بد أن أجره سيكون كافياً لتغطية نفقات حملته الإنتخابية.»

«هذا سيجعله حاكماً حقاً يا راينور.»

«متى ستتزوجان؟»

«سنحدد الموعد عقب عودته من واشنطن. سايلاس يقول إن جوناس سيتقدم بترشيحه في الوقت نفسه.»

www.liilas.com

«ماذا عن كورتني؟ فهو لم يمضِ كل وقته ليحصل منها على المعلومات، كما تعرفين.»

«لم تكن لتشكل تهديداً يا راينور. ولن تكون. يقول جوناس إن منحتها ستصل في أي وقت الآن وستمضي قريباً. الكلام يسرّك، إنه يريد أن يحملها على الظن بأن اهتمامه بها هو أكثر وأهم مما هو عليه. وسيبقى في واشنطن مدة أطول كي ترحل من تلقاء نفسها. وعلى هذا الأساس، لن تكون النهاية محزنة.»

«كم أود أن آخذها من بين يديه إذا ساءت الأمور بينهما.» قال هذا متمتماً، وراحا يقهقهان.

لم تستطع كورتني أن تتحمل المزيد، وغادرت المبنى، دخلت إلى شاحنتها الصغيرة، وراحت تقودها بلا أي هدف.

بعد أن علمت أن جوناس لم يحبها قط أو أنه كان يستعملها لاستغلال القبيلة لأهداف ماديّة وسياسيّة، أحست كأن جدران الدنيا ستنهار عليها. لم تكن قادرة على مغادرة عملها والخروج من مدار جوناس بسرعة.

وفي هذه اللحظات، هبت عاصفة ريح فجأة، وهزت الطائرة المائية، وقطعت أفكار كورتني المعذّبة. فنظرت إلى الغيوم السوداء. إذ أنها كانت عادة، بصرف النظر عن الطقس، تحب السفر في هذا العالم الهادىء الذي يحمل لمسات ما قبل التاريخ، بمتاهاته الخضراء ومستنقعاته وروابيه، لكن الغلايدس تكون أثناء المطر مخيفة للسياح. فادركت أن عليها اختصار الرحلة.

«بسبب ضيق الوقت.» قالت بارتجال ظاهر: «لن نهبط فوق تلك الجزيرة إلى يشاركم. لكننا سنعبر بصورة قريبة

بما فيه الكفاية، لتشاهدوا عائلة هندية تعيش بنفس طريقة رجال القبائل الذين عاشوا هنا، منذ أن تجنبوا هم وأبناء عمومتهم السيمينول عملية الترحيل إلى أوكلاهوما في القرن التاسع عشر...»

«إن كنت على خطأ أود أن تخبريني، ولكنني فهمت أن هذه الرحلة تتضمن زيارة إلى الجزيرة تدوم ساعة.» قال هذا جوناس مقاطعاً.

«من قوانين المركز أن نضع في أولوياتنا مصلحة الزائرين.» أجابت بعقلانية: «وكما ترى، سوف تمطر. فستكونون في وضع أفضل إذا ذهبتم لمشاهدة بعض الإنتاج الحرفي في المتحف.» ثم عادت بالطائرة المائية إلى القرية.

وهي في طريق العودة، تلقت العديد من الأسئلة من مسافريها، بمن فيهم اللذان يجلسان قرب جوناس، ركزت نظراتها عليه لثوانٍ معدودات.

كان وجهه بملامحه النسريّة، وخطوطه وزواياه الحادة التي تتسم بها محيّاه الأسر، قد رفعت جوناس إلى الظهور بمظهر رائع ومناسب بالنسبة لكورتني. إن سحره الرجولي الأخّاذ، وقوة شخصيته أسرتها منذ البداية ـ بل أعمتها عن الرجل الأناني المختبىء تحت هذا المظهر.

كان الألم الناجم من خيانته لا يزال قوياً. ولكي تتخلص من هذا الألم، ركّزت بسرعة كل قواها على قيادة الطائرة المائية في طريق العودة إلى الحوض.

لكن ذعرها ازداد، وهي تحاول أن تأخذ في الحسبان طريقاً للهرب منه. وكان كل شيء فيها يصرخ أهوبي، لكن

أنى يكون الهرب في تلك الظروف. كان قاسياً في رغبته في الحصول على كل ما يريد. كان يريدها، ربما لأنها جرحت كبرياءه. أو ربما كانت الرحلة قد جعلتها أكثر إثارة من ذي قبل في عينيه. وكانت كورتني تعلم أنه سيجدها إن ذهبت ومهما طال الزمن.

أوقفت طائرتها المائية في الحوض ببراعة، وفكت الحاجز. وبعد أن اصطنعت ابتسامة، التفتت إلى المسافرين وقالت: «أود أن أشكركم لكونكم متفهمين، ومقدّرين، وآمل أن تعودوا قريباً. لا تنسوا مهرجان الفنون الهندية الذي سيقام في كانون الأول (ديسمبر)، وكانون الثاني (يناير)، سوف تأتي أكثر من أربعين قبيلة للغناء، وترقص، وتمثل أمام الجمهور.

«ولا تنسوا أنه بإمكانكم المساهمة في حماية الفلايدس، وذلك، بتوجيه رسائل إلى رؤساء تحرير صحف فلوريدا تظهرون فيها تقديركم لواحدة من أعظم عجائب الطبيعة. شكراً لكم.»

وبعد الجولة الاعتيادية لأخذ الصور، صافحت كورتني جميع السياح فيما كانوا يغادرون، إلا جوناس. لقد أستند على دار بزين السلم وراح يتأملها، فأحست بقلبها يكاد ينزل إلى قدميها.

«لقد كانت رحلة مؤثرة.» قال هذا، بعد أن أصبح الجميع أبعد من أن يسمعوا الحديث.

«هل تقصد برغم جميع محاولاتك لإذلالي؟» سألته بغضب. ثم استدارت لكي تمضي، لكن جوناس استوقفها.

«بما أنك انتهيت من هنا فقد حان الوقت للكلام. ما رأيك لو نتكلم في أثناء تناول العشاء؟»

أطبقت فاها بشدة ثم قالت: «لماذا يكون تأثير الرفض على الرجل أشد منه على المرأة؟ أم أن كبرياء آل باين لا يسمح لهم بتقبل الخذلان من امرأة هجينة وسانجة؟»

لم تنتظر جواباً، بل مضت إلى موقف السيارات بخطوات خفيفة متجاوزة بعض السياح، الذين كانوا لا يزالون يطوفون في المكان. كانت تتوقع أن يمسك جوناس بذراعها ليمنعها من الرحيل، لكنه لمفاجأتها، تركها تمضي.

كان محامياً ذكياً، بل لامعاً. وكانت تذكر نفسها بذلك. كان بإمكانه أن يرى كورتني علمت الحقيقة، وما من داع لشرح تصرفاته لها.

كان ذلك ما تمنت أن يحدث، لكنها أحست بالم في صدرها، وهي تضغط على مسرّع شاحنتها الصغيرة، التي انطلقت في الطريق العام رقم ٤١، المعروف بممر تاميامي.

كانت في أعماق قلبها متعلقة بأمل ضعيف بأن يكون لحق بها لأنه يحبها. حتى أنها حاولت أن تصدق أنه قادر على تقديم شروح مقنعة لكل شيء. كم كانت حمقاء...

وأخذ المطر يرش على زجاج شاحنتها الأمامي، الذي كانت تغطيه طبقة من البعوض، وهي تتجه غرباً، وتمسح الدموع عن وجنتيها. وفي غضون دقائق، غسلت الأمطار، والرياح العاصفة سطح الزجاج كلياً.

لم تكن الشمس لتغيب إلا بعد عدة ساعات، لكن الغيوم الكثيفة كانت قد حجبت النور. وكانت أن تتمكن من رؤية العلامة التي تشير إلى دخولها محمية رد مانغروف، التي تشكل موطناً لعشرات من هنود الميكوسوكي.

أوقفت شاحنتها قرب المطعم، وأطفأت المحرّك،

www.liilas.com

وأسرعت باتجاه الباب لتتجنب البلل الكامل. لم يكن هناك أحد باستثناء روزا.

«مرحبا.» حيّت كورتني السيدة المسنّة بحماس مصطنع «كيف حال العمل؟»

«ماذا تعتقدين؟» أجابت روزا بجفاف، لكن كان هناك ومضة تصميم في عينيها: «هل أنت جائعة؟»

فكّت كورتني ضفيرتها وجلست بالقرب من أحدى الطاولات «طبعاً.» أجابت بإيجاز: «لكنني سأكتفي بسلطة وقهوة.» جلست على الكرسي وفركت صدغيها، حيث شعرت ببداية صداع. وبعد دقائق قليلة، جاءتها روزا بالوجبة.

كانت ترافق الوجبة قطعة من خبز يقطين مثلّى، كانت اعتادت روزا على تقديمه، وكانت فخورة به. راحت كورتني تتناوله بهن رشفات القهوة الساخنة مجاملةً. وكانت أفكارها منشغلة بجوناس. وسرعان ما فقدت شهيتها. كان المستقبل يبدو قاتماً، من دون أن تحقق آمالها.

دخل فرانك بيرد مع شقيق له المطعم، وكان رجلاً قريباً من عمر كورتني، في السادسة والعشرين، وكان أحد الحرفيين في القبيلة. فنظر إلى كورتني ملياً، وهذا الأمر راح يمارسه مؤخراً بكثرة. وكان يظهر أينما كانت في المحمية. حيته بلطف برأسها، ولاحظت من مظهره المبلل أن المطر لم يتوقف بعد.

كانت تتأمل السلطة دون أن تتذوقها، ولا حتى تراها فعلاً. فأحست بوخز على ظاهر رقبتها ـ شيء خارج عن نطاق الإدراك الحسي العادي ـ مثلما أحست يوم لحق خروف البحر بالزورق الذي كانت تستقلّه في منطقة بعيدة

قرب كايب سايبل. كان يسبح تحت سطح المياه مباشرة، لكنها أحست بوجوده.

وضعت الشوكة على الطاولة، والتفتت من فوق كتفها، فرأت نظرة جوناس الثاقبة مصوّبة عليها. كانت قد افترضت أنه سيعود إلى مهامي. فلماذا كان يصر على جعل النهاية صعبة؟ فحسب ما تذكر، لم تكن القسوة من طبعه. لكن لم تكن تعرف في الماضي جوناس على حقيقته.

بلعت لعابها بصعوبة. كانت تعرف أن له جانبية سوداء. وإذا ما استثنينا قميصه الملتصق بكتفيه وصدره العريضة، كان شبيهاً بالبطل التاريخي أوسكيولا، الذي كانت تحلم به منذ نعومة أظافرها. كان الشبه الجسدي بينه وبين فتى أحلامها هو الذي شدها إليه. فبنية جوناس، وجلده البرونزي ومعالم جسمه كانت تلفتها كلما دلف إلى مكتبه. مثل أوسكيولا، كان ذا هيبة وحضور قويين، كأنه ولد ليكون قائداً. لكن أوسكيولا كان أمير قومه، قوياً، فخوراً، شجاعاً ومحبوباً. لم يكن خائناً.

بعد أن حوصرت، لم تجد كورتني بداً من مواجهة الغريم. ربما كانت أفضل وسيلة للدفاع هي البدء بالهجوم. «تعال واجلس يا جوناس.» ألحّت بصوت هادىء. كان الميكوسوكيون شعباً خجولاً، ومهذباً مع الغرباء. ونظراً للظروف، فلا بد أن تكون مهذبة وإلا أثارت موجة من القال والقيل، وهذا ما لا تحبه.

«أنا سعيد لأن أرى أنك قررت قبول دعوتي للعشاء.» قال هذا، وهو يجلب كرسياً من طاولة أخرى ليجلس معها. مرّر

www.liilas.com

يداً برونزية في شعره، المبلل بالمطر، وابتسم لروزا، التي أحضرت له القهوة ودونت ما طابه للعشاء.

أظهرت هذه الحميمية بينهما لكورتني، أنهما ليسا مجرد شخصين يعرفان بعضهما سطحياً: لقد أصبحا صديقين. ضحكت روزا من كل قلبها لمداعباته، قبل أن تعود أدراجها إلى المنضدة. إن قدرة جوناس على التأثير في روزا جعلته يبدو، بين الجميع، خطيراً.

«الوحل يغطيك.» لاحظت كورتني.

أسند ظهره إلى كرسيه، والقى نظرة على قميصه الملطخ، وحذائه المبلل. «كنت على وشك أن أجرف بواسطة شاحنة صغيرة كالتي تملكين، وذلك على الطريق العام. ثم توقفت لأساعد السائق في إبعاد شاحنته عن الحافة.»

كان مبرره مقنعاً، وكانت كورتني متوترة. لكنها استطاعت أن تحافظ على هدوء نبراتها. «هناك مغسلة في المطبخ، يمكنك أن تستعملها لتنظيف نفسك. روزا لن تمانع. وبينما تقوم بذلك، سأحاول أن أجد لك شيئاً جافاً ترتديه عند خروجك.»

ظهرت بعض معالم الغضب على نظراته الفاتنة. «إن اهتمامك يؤثر بي.» أخذ رشفات طويلة من قهوته، وقال: «لن أذهب إلى أي مكان، لكي لا تحاولي الهرب مني. لن تتحاشيني إلى الأبد.»

قبل أن تتمكن من الإجابة، جاءت روزا بعشائه، مرفقاً بقطعة إضافية من خبز الثقلين، وفنجان آخر من القهوة الساخنة. تناول الطعام، وشرب باستمتاع بادٍ. دون أن يظهر أي اهتمام بكون الحديث قد انقطع. وتساءلت كورتني

إذا كان سكوته كالهدوء الذي يسبق العاصفة. وأحست بالتوتر يستحكم بها، كلما حاولت أن تفهم لماذا يصر على متابعة علاقة انتهت، وقصة حب لم يعد مرغوباً فيها.

ربما كان يريد المزيد منها، كان تؤكد له أن بإمكانه الاستمرار في الاعتماد عليها لتشرح له عادات الميكوسوكي، أو لتترجم له. لكنها تحملت أقصى ما يمكنها أن تتحمل، وحاولت أن تنهض من وراء الطاولة. لكنه غطى بيده القوية يدها، ومنعها من المغادرة.

«لا تحاولي، يا كورتني.» تكلم بلهجة ناعمة لكن مخيفة: «أنا لم أبدأ معك بعد.»

كانت نبضته شديدة، وكان يعني ما يقول. جلست كورتني. وطافت عيناها بأرجاء المطعم، الذي أصبح تقريباً مكتظاً. كان الزبائن يأتون ومعظمهم من معارفها. وبسبب انشغالها بجوناس، لم تلاحظ هذا إلا الآن. «أرجوك دع يدي.» همست بإلحاح: «الناس يحملقون بنا.»

«دعيهم.» راح فمه يضيق. «أريد الحقيقة. الآن!»

«جوناس،» قالت بصوت مهتاج. «لا يمكننا أن نتكلم هنا.»

«بالنسبة لما أريد سماعه، أوافقك الرأي.» قال بحزم. «يمكننا أن نتحدث في سيارتي أو في منزلك.»

انتفخ صدرها كما لو كانت تركض لمسافة طويلة. وعلى الرغم مما بذلته لتتجنب مواجهة حاسمة، نجح جوناس في إظهار كل شيء للعلن. «سيارتك ستلفت إلينا الأنظار.» لم تقل إن سيارته ستكون ضيقة... وحميمة جداً...

تنقلت عيناه التوّاقتان على وجهها. «إذن إلى بيتك.

www.liilas.com

فلنذهب إلى هناك.» تحرّكت يده عن يدها بتردد لتسحب من محفظته ورقة بعشرين دولاراً، ثم تضعها على الطاولة. شكَر روزا على العشاء، مما أثار اعتزازها وانزعاج كورتني.

أحست كورتني بعيني فرانك تنصبان عليها، فيما هي نهضت وجوناس من وراء طاولتهما. لقد بدأت تفكر أن روزا على حق، في ما قالته حيال اهتمام فرانك بها. كانت تعرفه منذ الطفولة، لكنها لم تتجاوب معه، ولا مع أي رجل آخر، بعد أن وقعت في غرام جوناس.

لذلك، لم تقاوم عندما وضع جوناس يده في يدها، وهما يخرجان من المطعم. من الأفضل أن يظن فرانك أنها مغرمة بشخص آخر. كانت روزا تلح على كورتني أن تكون لطيفة مع فرانك، وأن لا تؤذي مشاعره. لكن كورتني دفعت ثمن خدعتها الصغيرة. لقد أحست من ملامسة كف جوناس أن جلدها يحترق. لقد أخجلها أن تلاحظ برغم الألم، الذي تعانيه في قلبها من خيانة هذا الرجل، أن حراسها تتجاوب معه.

وفي اللحظة التي وطئت فيها أقدامهما خارج المطعم، ابتعدت كي تترك مسافة معقولة بينهما.

الفصل الثاني

خيّم الليل على الأثرغلايدس، وقد رحبت كورتني بالرذاذ الذي تلا المطر الغزير. «كوخي في آخر الطريق.» سارت مسرعة، وهي تحاول أن تتجنب برك الوحل، ومحاولات جوناس في مساعدتها.

بدت سيارته الفيراري السوداء متعارضة، مقارنة بالمجموعة غير المتناسقة من السيارات، والشاحنات المستعملة المركونة أمام مطعم روزا. سرّع جوناس خطواته ليواكبها، إلى أن وصلا إلى مجموعة الأكواخ الحجرية.

«هذه وحدتي.» قالت، وهي تفتح بابها، وتشعل الأنوار. ودلف إلى غرفة الجلوس الصغيرة.

عاينت الأثاث الحديث الذي كان يحاكي النمط الدانمركي بسرعة، وهي تحاول أن تراه من منظوره، مقارنة مع مزرعته الرائعة في جزيرة لاغورس، ربما وجد ما يراه في بيتها مثيراً للسخرية، خصوصاً أن البعض يخزنون السلال والدمى في بيتها، ريثما يتسنّى لهم بيعها في المركز.

«أين كل أشيائك؟» سألها بهدوء. وخلال علاقتهما، لم يأت إلى شقتها الصغيرة في ميامي إلا لماماً. كانا يلتقيان معظم الوقت في يخت آل باين، وهو يجوب الفلوريدا كيز.

«وضعتها مؤقتاً في مخزن. أما هذا الكوخ فاستأجرته مفروشاً.» مدت يديها أمام وجهها، وأضافت: «أعلم أنه

ليس ما تعوّدت عليه، لكنه بيتي الآن. أجلس وساقدم لك شراباً بارداً.»

نظر إليها بكآبة. «منذ متى بدأت تشعرين بضرورة تبرير أي شيء أمامي؟»

«هل كنت أبرر؟» سألته بلباقة، فيما كانت تركز فوق الطاولة مروحة صغيرة بشكل يجعلها تبعث الهواء باتجاه الأريكة: «هذا المكان كالفرن كل ليلة أدخله.» رفعت ضفيرتها الثقيلة وألقت بها على كتف واحدة. «كل ما أستطيع أن أقدمه هو جعة الزنجبيل.» أضافت، فيما كانت تتوجه نحو المطبخ.

وبعد برهة قال: «جعة الزنجبيل سوف تكون كافية.»

لما عادت، تناول كوب الشراب الذي وضعته على الطاولة، وراح يرقب حركاتها من خلال الكأس، فيما كان يأخذ جرعة طويلة. أسرعت نحو غرفة النوم، وانتزعت قميصاً رجالياً عن العلاّقة.

«خذ، البس هذا. إنه واحد من عدة قمصان خلفها أبي لي لما غادر إلى زائير. الحمام في آخر الردهة.»

لمعت عيناه الخضراوان، وانتصب على قدميه وراح يفك أزرار قميصه. «إن كنت لا تمانعي سابدل قميصي هنا. أنت مراوغة، يا كورتني بلايك. وكي أكون صادقاً معك، لست مستعداً لأن أواجه اختفاء آخر هذه الليلة.»

وفي ثوان، انتزع قميصه المبلل، والملطخ بالوحل، وارتدى القميص القطني الأبيض، مما وضح لونه القاتم، وجلده البرونزي.

ذكّرتها رؤية صدره القوي أن عدة أسابيع قد مضت على

آخر مرة كانت منسجمة معه لدرجة لم تعد معها قادرة على التفريق بين دقات قلبه ودقات قلبها.

وأخذت جاهدة تتخلص من توقها الذي أثاره قربه منها، فركزت أفكارها على ملء المغسلة بالماء، ثم وضعت قميصه المتسخ لينتقع. كانت في بعده ترى الأشياء بوضوح، لكن لم تستطع، وهو قريب الآن، أن تفكر سوى بأسلوبه الخاص في الحب.

لو لم تتراجع يوم أراد النوم معها، لما كانت النار تتأجج بهدوء القوة في داخلها. لم يفتنها رجل آخر كما فعل جوناس. لم يملك أحد غيره القوة لايصالها إلى هذه الرغبة اللاعقلانية، والجامحة للحصول على ما يمكنه أن يعطيها. لكن تقاليد القبيلة التي تعلمتها من أمها، منعتها من النوم مع رجل آخر غير الزوج.

لكن الزوج العتيد عليه أن يجعلها تحس هكذا، وهي تشك بوجود رجل كهذا. وما أخافها كان أن تمضي بقية حياتها تقارن كل الرجال مع جوناس، كانت تشك في امكان أن تمنح قلبها مرة أخرى كلياً.

«كورتني؟» لما سمعت اسمها، انتفضت، واستدارت لترى جوناس بقامته النحيلة مستنداً إلى حاجب الباب، وإبهاماه معلقان في جيبتي بنطاله. «كفي عن المماطلة وعودي إلى غرفة الجلوس. علينا أن نتكلم. أظن أنك أصبحت واثقة من أنني لن أمضي.»

ارتجفت يداها، وهي تعصر القميص، وتعلقه على الكرسي ليجف. «أنت لا تستسلم أبداً يا جوناس. أقول لك إنها ليست من عاداتك الجذابة.»

www.liilas.com

التمعت عيناه بالغضب. «كونك ردئية الطبع، ليس من عاداتك أيضاً. إنسي أمر القميص. عندي مدبرة منزل، هل تتذكرين؟»

وكيف لا تتذكر؟ مدبرة منزل، وشقق وأملاك في جميع أرجاء المعمورة، لم ينقصه شيء. كانت تشك في أنه لا يريد منها أكثر مما يتعلق بالقبيلة.

ماذا يريد إذن؟ هل يظن أنها ستستمر برؤيته بعد زواجه فقط، لأنهما منجذبان لبعضهما؟

«الأهم أنك مترط مع لورا. هل تذكر؟» انفجرت به، وتشبثت بمسند الكرسي، لكي تتمالك نفسها. فقطب حاجبيه وقال: «أنا وهي زميلان في الشركة، إن كان هذا ما ترمين إليه. هل هي التي تعتقد بالهجينة؟ هل أن كل الأمر يتعلق بهذا؟»

تنهدت، وقالت: «لقد نعتوني بأشياء كثيرة في حياتي، وفي إمكاني أن أكون متسامحة، لكن ما يضايقني هو استغفالي. فإلى متى كنت تخطط لتبقيني في الظلام؟»

«لا أدري عمّ تتكلمين بحق الجحيم.» انفجر بها.

«كفّ عن الكذب يا جوناس! أعلم كل شيء عنك وعن لورا. كل المؤسسة تعلم!» وضمت قبضتي يديها.

«تعلم ماذا؟» قال بإصرار: «لا تتوقفي الآن. نوّريني.»

«كيف تدّعي أنك لا تفهم عمّ أتكلم، فيما أبوك أعلن عن زواجك المرتقب أمام كل الموظفين.»

بدا وجه جوناس في المطبخ، ذي النور الخافت، شاحباً.

«متى كان ذلك؟»

رفعت ذقنها بكبرياء. «في الليلة التي ربحت فيها

القضية، دعا سايلاس إلى احتفال صغير على شرفك، كونك كسبت معركة العشرين مليون دولار. وسمعت لورا تقول لرايتور إنك ستحضر للزواج فور رجوعك من واشنطن.»

بدا الصمت لا متناهياً. «وصدّقتهم بعد كل ما كان يمثله واحدنا للآخر؟» كان يتحكم بصوته، لكن وتراً اشتد في عنقه مظهر غضبه.

فتحت كورتني عينيها، وقالت: «هل تطلب مني أن أصدق أن أباك ولورا قد يكذبان أمام غرفة مليئة بالناس؟ وخصوصاً زملائهم؟»

«أنا لا أطلب منك أن تصدقني. أنا أقول لك بشكل واضح إن ما سمعته تلك الليلة كان محض اختلاق.»

حركت رأسها غير مصدّقة. «كنت أعلم أن هناك تباعداً بينك وبين أبيك، لكنني لم أعرف أنه شديد لهذه الدرجة.»

«لماذا تدافعين عنه، يا كورتني؟ أين المرأة الدافئة، والصحبة التي كنت أحضن بين ذراعيّ؟ كنت واثقاً أن تلك المرأة كانت تثق بي.»

حيرت كلماته، التي قالها بتلك الحماسة، كورتني، وأعادت إليها دفقاً من الذكريات. فأسرعت إلى غرفة الجلوس لتبتعد عنه.

ظهر جوناس بعد ثوانٍ في باب الغرفة، وقد بدا على وجهه التجهم والعناد. كان أزيز المروحة يزيد من التوتر في الأجواء. «إذا كنا نعيش في قصة خرافية.» بدا كأنه بعيد عنها.

«لماذا أدعيت إنك تحبني؟» صرخت بألم: «هل كنت تشعر بلذة مَرَضيّة في إذلالي؟ كان بإمكاني أن أعطيك ما تريد. كان عليك أن تسأل.»

www.liilas.com

ضاق فمه إلى خط أبيض رفيع من الغضب.

«إن لم أكن أحبك، هلاً أخبرتني ماذا تظنين أني كنت أريده منك؟»

«كنت تريد نفوذاً في القبيلة، لذا تنازلت وواعدتني، لتنال جميع المعلومات الداخلية التي كنت تحتاج لها عن حياة الميكوسوكي. وكخطيب مزعوم لي، أملت أن يكون لك حظوة لا مثيل لها لدى كبار القوم في القبيلة، ويكون لك كذلك مصداقية في أعينهم.»

تنهدا كلاهما، ثم قال: «هذا افتراض أخّاذ، لكن حقيقة الأمر هي غير ذلك. فالزعيم بوب ويلي لا يوافق على نمط عيشك، يا كورتني. أنت تذكرينه بأحد أبنائه، الذي غادر المحمية منذ أعوام خلت، بحثاً عن النجاح في عالم البيض. الزعيم رجل تقليدي. لقد سببت لي علاقتي معك إحراجاً شديداً أمامه.»

بهت لون خدي كورتني شيئاً فشيئاً حتى أمسى احمرارهما نمش شاحبة. لقد خنقتها براعته في الإجابة، غير قادرة على التنفس. كانت كورتني تعي أحاسيس الزعيم. وكان يشبه في كثير من الأوجه روزا. وما صعقها كان اطلاع جوناس على هذا الأمر. فأحست بالأرض تنشق تحت قدميها.

تقدم خطوة باتجاهها، وقال: «هل سألتك يوماً خلال علاقتنا أن تستعملي نفوذك عند الزعيم من أجلي؟»

لم تستطع أن تتحمل نظراته: «لا. يبدو أنك قادر على فرض تأثير قوي لمصلحتك.» قالت بتهكم قاس: «ولعبت على وتر الكبرياء عند الزعيم. أعطيك كامل الفضل في

استغلاله بذكاء، وبراعة لدرجة أنه لم يعِ الهدف من وراء ذلك.»

تلا كلامها هدوء ثقيل. «وماذا كان ذلك الهدف؟»

«تعلم جيداً أننا نتكلم عن المال. الكثير من المال.»

«أنا رجل ثري، يا كورتني. ولكن لنسلم جدلاً بأنني رجل جشع، ففسري لي كيف؟ استغلالي للزعيم على المال، وهو على رأس واحدة من أفقر قبائل الهنود في أميركا الشمالية؟»

«هل تنكر أنك درست المعاهدة القديمة، ووجدت فيها العديد من الثغرات القانونية، فأعدت طرحها في المحاكم؟»

«أنت تعلمين الجواب، لذلك، أخبرتك بنفسي.»

«لكن لم يفهم كبار قبيلتي التشعبات القانونية، إلا بعد أن شرحتها أنت لهم.»

«هذا صحيح.»

«لقد أقنعت بوب ويلي والباقين بمقاضاة الحكومة، وأنت تعلم أن التسوية ستكون مربحة إذا كسبت القضية.»

«هذا صحيح. ستعود إليهم أراضيهم الأصلية، إضافة إلى مبلغ وفير من المال لقاء الفوائد المتراكمة على مر السنين.»

نظرت إلى جوناس. «وطبعاً لن تنال من المال شيئاً.»

عقد حاجبيه، وقال: «أنا لم أقل هذا. سأحتفظ بقسم من المال من أجل... مشروع أعمل فيه.»

أحست بزناد حول صدرها يضنق أنفاسها. «وكلانا يعلم ماهية المشروع. أنت لا تختلف عن باقي المحامين الذين استغلوا الهنود وملأوا جيوبهم بمعظم العائدات دون أدنى اهتمام بمصلحة القبائل.»

www.liilas.com

«عاذري في كلامك، يا كورتني. وبخلاف ما يظنه الناس، فإن دماءك الهندية لا تجعلك تملكين قدرة نفسية على معرفة دوافعي.» كانت لهجته مفعمة بالتهديد. بل أكثر من ذلك، بالازدراء.

تراجعت كورتني، واستندت إلى كرسي. «جوناس...» ووضعت يداً على رقبتها. «أريدك أن ترحل الآن.»

«يا إلهي.» تمتم: «أتظنين أنني لم أكن أؤمن بمستقبل سعيد لنا معاً؟»

أحست بجسدها بارداً من جراء عدوانيته. «أنا... أنا بذلت ما في وسعي لكي لا يحصل ما حصل بيننا الليلة، لكنك...»

«لا تجرئي على افتراض أشياء أخرى عني.» تحرك باتجاهها، فيما تجمعت على نفسها خوفاً من الوعيد الذي في نبراته. «لقد تصورت كل شيء أليس كذلك؟» كانت عيناه تشعان بالغضب.

تراجعت تلقائياً خطوة إلى الوراء، لكن يده انطلقت: وجذبت معصمها بسرعة. «من أجل إرضاء فضولي.» قال مسهساً: «أخبريني عن ذلك المشروع الشائن الذي أعمل فيه.»

أحست برعشة تجر عبر جسدها بأكمله. «لا تفعل هذا، يا جوناس.» لكنه لم يكن يصغي.

«أخبريني!» واشتدت قبضته.

«تمويل حملتك الإنتخابية.»

التوى فمه ببغض: «مهما قال أبي لك، لن أترشح لمنصب سياسي، يا كورتني. لقد فكرت بهذا مرة في الماضي.

الأمور تغيرت بشكل جذري، منذ الأيام التي كنا فيها أنا وأبي منسجمين في الرأي.»

انحنى رأسها، ولو لم يكن يمسكها لوقعت على الأرض. لمعت عيناه. «أنا لا أفهم تأثير الرجل عليك! يبدو أنه قوي جداً بدرجة أنك لم تملكي اللياقة ولا الشجاعة... ولا حتى الاحترام لي... لتخبريني بما جرى في المكتب والذي جرح كبرياءك هكذا. كانت علاقتنا برمتها على المحك. وكل ما قمت به هو الفرار.»

علمت من قوة قبضته أن تحكمه كاد يكون مكبوحاً. «كنت تعلمين جيداً أن ما حدث بيننا يحصل مرة في العمر، هذا إذا حصل. وكان عليك، حفاظاً علي وعلى نفسك وعلى سعادتنا، أن تتصلي بي. إذ كنت قد شرحت لك. وكنا قد تكلمنا في ذلك الشأن.»

ربما كانت تتخيل، لكنها ظنت أنها ترى بريق ألم في أعماق عينيه الداكنتين. وأطلق بشكل غير متوقع ذراعيها.

«سأتخلى عن أي شيء مقابل أن أصدقك.» همست بقلب محطم.

نظر إليها بطريقة لم تقدر على فك رموزها. «أنت لست امرأة مخلوقة لأجلي. قد تكونين واحدة من أجمل المخلوقات التي أوجدها الله في هذه الأرض، لكن داخلك جليد... سريع الأنكسار، لا ينثني، ولا يستطيع أن يؤمن. ساعديني أيتها المتجمدة حتى الصميم. لا أعلم كيف ظننت أني قادر على أن أذيبك.»

مشى في الغرفة ذهاباً وإياباً، ثم اختفى عند الباب الأمامي قبل أن تتمكن من مناداته كي يعود.

www.liilas.com

بعد ساعات، كانت لا تزال تبكي وتحرق وسادتها بالدموع. فما حصل في غرفة الجلوس، حقق ما لم تستطع كل وسائل التملّص في العالم أن تحققه. رحل جوناس إلى الأبد.

كان الألم شديداً، لدرجة أنها ظنت نفسها ستموت بسببه.

لا بد أن النوم لفترة قصيرة في الليل رفرف عليها، لأنها حلمت بجوناس، رأته يرتدي السروال الخاص بأوسكيولا، وعمامته، ودرعه مع كتافيته المميّزتين له كبطل قومي. ابتسم للجميع إلاّ لها. استيقظت على وسادة مبللة، وكانت منزعجة من أن جوناس كان يستحكم بها صاحية وغائبة.

تمنت لو أن أمها مازالت حية لتواسيها، ثم نهضت عن سريرها إلى الخزانة، التي كانت تحتفظ فيها بصور لأبويها، إضافة إلى نقش خشبي، يمثل أوسكيولا كانت والدتها تعتز به. بدت على وجهها تعابير حزينة إذ تذكرت والدتها. كانت امرأة ممزّقة بين ثقافتين.

تقاليد الميكوسوكي لا تهتم بالانجذاب الحسي، إذا اتفقت المرأة الطهي، واتقن الرجل الصيد صارا زوجاً وزوجة جيّدين. لكن أم كورتني كانت أحبت توماس بلايك لأسباب مختلفة، ولدواعٍ أخرى، فتزوجته. نظرت كورتني برهة إلى صورته. كان أباً محبّاً، ومهندساً منغمساً في العمل. كانت بشرته بيضاء بعينين زرقاوين مملوءتين بالأحاسيس، وكان شعره بنياً كشعر كورتني.

كانت تعتقد أن نظراته الأميركية، وشخصيته المنفتحة هي ما جذب أمها إليه. تنهدت كورتني، وأشاحت بنظرها بعيداً. كان والداها على نقيضين... شخصيتين

متضاربتين في كل شيء... وهذا كان أساس غرامهما. الإبنة سر أمها! لكن كانا مع جوناس يتقاسمان الكثير من الصفات والفروقات التي ساندت حبهما، ولم تعرضه للخطر... أو هكذا كانت تظن...

لم تعرف لِمَ أحس جوناس أنه مضطر للكذب عليها، كما لم تفهم العداء الذي يكنه لأبيه. لكن آباً مخلصاً مثل سايلاس لا يتصرف كما تصرف في المكتب، ما لم يكن يقول الحقيقة. أحست منذ أول يوم لها في العمل بعاطفة سايلاس نحو ابنه الوحيد. كان يعبده كتمثال ذهبي.

كان سايلاس يذكر كورتني بأبيها قليلاً. وكان توماس بلايك شغوفاً بابنته، ربما لأنها كانت الأبنة الوحيدة أيضاً. كانت في نظره منزهة عن الخطأ. وكان لذلك يساندها في كل مشاريعها، ويؤكد لها أن ما من شيء مستحيل، إذا ما أرادت.

كانت ترى سايلاس أباً مماثلاً، رجلاً لا يريد إلا الأفضل لابنه. كانت تفهم لماذا يريد أن تكون لورا كنته، برغم أن الأمر كان يؤلمها.

كانت لورا امرأة ناجحة، طموحة، ومخلوقة للحياة العامة. ستكمّل جوناس بطريقة لا تقدر عليها كورتني، وستكون شريكة حياة مثالية لرجل سيضعه مستقبله دائماً تحت الأضواء. أحست كورتني، صبيحة ذلك الاحتفال، عندما جاءت مكتب سايلاس لتضع استقالتها بين يديه، أنها تأكدت من هذه الناحية بشكل قوي. فما زالت تذكر مكالمة سايلاس الهاتفية مع أحد أصدقائه، مارك تولمان، الذي هو وسيط عقاري بارز.

www.liilas.com

كان يقول له: «هذا صحيح يا مارك، كان على جوناس أن يدفع ما عليه من رسوم، ويغرق في بعض المشاريع التي كانت، آه، حساسة في طبيعتها بعض الشيء. والآن بعد أن كسب إحدى قضاياه الكبيرة، راح يخطط هو ولورا لحياتهما، ولم يبق عليه سوى الدعوة للحفلة.»

وفيما راح يتكلم، ابتسم لكورتني ابتسامة عريضة بيضاء، مما ذكّرها بجوناس، وأشار لها أنه انتهى من المكالمة تقريباً.

«هنا يأتي دوْرك يا مارك.» اختتم حديثه: «لكنني سأخبرك الليلة، في منزلك أثناء تناولنا العشاء بكل شيء، تقول بلاتش إننا سنقدم الكوكتيل عند السابعة.» هذا الكلام قرع ناقوس الموت في قلبها مرة أخرى، فراحت تتألم بصمت إلى أن أتيح لها أن تغادر الشركة القانونية بشكل نهائي.

والآن، وقد سرّت بقدوم الفجر، استحمت وارتدت بنطالاً نظيفاً من الدنيم (قطن متين) وبلوزة. وبعدما علقت قميص جوناس في الخزانة لكي لا يذكرها به دائماً، تركت البيت وتوجهت لأخذ القارب الذي صنعه لها قبل سنوات عمها، والمخبأ في مخزن وراء مطعم روزا.

كانت كورتني تستعمل القارب لتقوم به بزيارة جدتها، التي تعيش في الغابات. لكنها امتنعت، منذ وفاة أمها قبل ثلاث سنوات، من عائلتها كلها أحبت أن تقوم بذلك. فالجامعة أدت بها إلى أن تكون مشغولة جداً، فلم يتسن لها وقت فراغ.

الحقيقة، أن مشروعها في جامعة أوكلاهوما قد يقتضي

لاكماله سنة ونصف السنة. كانت لُغة الماسكوجي، التي يتكلم بها هنود السيمينول في أوكلاهوما، قريبة من لغة الميكوسوكي. وكانت كورتني تفكر في وضع دراسة مقارنة بين اللغتين كجزء من برنامج ما بعد شهادة الدكتوراه.

وعندما تنتهي من هذه الدراسة ستصبح، كما أخبرها أستاذها الدكتور أغلي، أستاذه في دائرة علم الإنسان في الجامعة، وذلك بدوام كامل. لكنها لا تريد أن تغادر إلى أوكلاهوما قبل أن تزور جميع أقربائها. من يعلم متى ستسنح لها الفرصة في المستقبل لتمضي معهم بعض الوقت؟

مجرد التفكير في أنها ستكون في صحبتهم غير المتكلّفة، أراح كثيراً قلبها المتألم. كانت تحتاج لأن تكون مع جدتها، فهي تقرّبها من والدتها.

بل أكثر من ذلك، تعتبر الأم الرئيسة التي صارت في آخر العقد الثامن من عمرها موسوعة تمشي على قدمين. كانت تكمن فيها ذكريات عالم مجهول غير معروف تقريباً، ويمضي بخطى متسارعة إلى الفناء. كانت كورتني تود لو تسجل أنا سيصها للقبيلة ولنفسها.

لم تكن تشعر في تلك اللحظة سوى بالرغبة في المغادرة. فالإجهاد الناجم من الرحلة سيساعد في تخفيض آلام خيانة جوناس. وعندما تصل سيكون هناك ما يكفي لإشغالها، وخاصة في النهار، فلا يعود التفكير بجوناس يقلقها. سوف تعمل، تلعب مع الأطفال، وتتحدث مع جدتها. لكنها كانت خائفة من الليالي.

أخفت عينيها المتورمتين وراء نظّارة شمسية، وأملت أن

لا يكون هناك أحد خارج المطعم حتى لا يلاحظ شعوبها الشديد. فالتفكير بالطعام جعلها تشعر بالغثيان فلم تنوِ أن تتوقف لتتناول الافطار. لكن، لخيبة أملها، شاهدت بالقرب من شاحنتها المركونة قرب مطعم روزا الزعيم بوب ويلي ينتظرها.

ما إن توجهت إلى جهة السائق، حتى رأت جوناس متكئاً على باب شاحنة ملطخة بالوحل عليها شارة «مرشدات أميركا» من مكتب الشؤون الهندية، ومركونة قرب شاحنتها. ما الذي كان يحدث؟

خلعت نظارتيها وحدقت في الرجلين بلا حول ولا قوة. وركزت نظرها على جوناس، الذي كان يرتدي بزة كاكية كتلك المخصصة لرحلات الأدغال. بدا نشيطاً وذا رجولة طاغية. لكن لما تمعنت بوجهه بدت عليه ملامح رجل غريب.

نقلت نظرها بسرعة باتجاه بوب ويلي، كأنها تطلب تفسيراً، فحنى رأسه محيّياً.

«مرحباً، بوب.»

«هل تريدين أن تأتي إلى المدينة معنا؟ بما أنك عملت مع جوناس هل يمكنك أن تترجمي حديثه مع تومي؟ إنه بحاجة للمساعدة.»

أخذت نفساً عميقاً، وهي تحاول أن تتجنب نظرة جوناس القاسية. كان تومي ابن بوب البكر، وكانت قد سمعت أنه وقع في مشكلة. «هل هو في ميامي؟»

«هذا صحيح، وكان جوناس يقوم ببعض التحريات من أجلنا.»

هزت كورتني رأسها، كأنها تريد الاستيضاح. «لم أفهم. هذه مشكلة مدنية، ولا تتعلق بالأراضي.»

كانت تعابير بوب الرزينة لا تكشف شيئاً. «ربما كانت روزا على خطأ. وربما رأت شخصاً آخر ليلة أمس يدخل إلى منزلك. فلا بد أن يكون هذا التفسير الصحيح. وإلا لكنت علمت أن جوناس باين هو المدير الجديد لمحمية رد مانغروف.»

www.liilas.com

الفصل الثالث

«ماذا؟» ظنت لبرهة أنها لم تسمع ما قاله بوب جيداً، ونقلت نظرتها إلى جوناس.

«لا يفاجئني أن تجدي أن الفكرة مضحكة.» قال هذا بنبرة جافة كأنه كان يستمتع بانزعاجها.

رفعت بعض الشعيرات البنية عن جبينها. «لا أفهم كيف يمكنك أن تصبح مديراً؟» وغاب بوب للحظة عن وعيها.

«وكيف يصبح الإنسان مديراً؟» قال بسخرية.

«إنه مركز يقدم للهنود الأميركيين المحليين الذين يمضون سنوات ليترقوا إليه.»

«ليس دائماً.» قال موضحاً: «في حالتي، صوّت مجلس القبيلة لمصلحتي، وهكذا تم تعييني من المراجع السياسية. إنه أمر يحصل من وقت لآخر... حتى لرجل أبيض.»

نظرت كورتني إلى بوب تستوضحه. فابتسم لها الزعيم ابتسامة نادرة. «هذا صحيح. فقد اقترحنا اسمه منذ أكثر من سنة. وقام السيد باين بعمل ممتاز في موضوع الأراضي لأجلنا، وكانت القبيلة تريده أن يشرف على قضايا المحمية بالإجماع. ووجب عليه أن يتعلم الكثير لكن الأمر أصبح الآن رسمياً.»

فلا عجب من أنه احتقر كل دقيقة من أوقات كورتني! لم تعد قادرة على التنفس.

«متى حصل هذا؟»

تأمل جوناس لفترة طويلة معالمها المتشنجة، ثم قال: «تم تعييني وأنا في واشنطن.»

كانت كورتني لا تزال متأثرة بصدمة ما كشفه بوب ويلي. إن تعيين رجل أبيض لأمر نادر. فهي لا تنكر أن أمراً مماثلاً حصل في بداية القرن، حيث كان يعين «وكيل» متميّز، كما كانوا يطلقون عليه آنذاك.

إن وظيفة مدير هي مهنة مدى الحياة، مليئة بالالتزامات والتعاون، إضافة إلى تطبيق السياسة الفيديرالية ضمن نطاق المحمية.

وتتمتع عائلة باين بنفوذ لدى أصدقاء في مناصب عليا في الدولة، لكن كان لا يمكن الحصول على هذا المنصب لو لم تكن القبيلة تساند جوناس. مئة بالمئة لم تستطع أن تفهم جيداً.

هل أعمتهم وسائل جوناس، وبراعته في الاستغلال؟ لا يمكن أن يكون لديه العزم على صرف بقية حياته في رد مانغروفا فلا بد أن يكون عمله ليس أكثر من خدعة ذكية، لتوطيد علاقات عامة قوية، وكسب المزيد من الأصوات. كيف سيجد الوقت ليستمر في العمل في القضايا القانونية في الشركة؟ من يملك الخبرة والذكاء ليملأ، في حال غيابه، مكانه؟

«لماذا لم تخبرني أمس؟»

استقام في وقفته، فظهر طول قامته في أقصى امتدادها. «لم يعد للسبب صلة بالموضوع.»

لو أنه صفعها، لما كانت صدمت أكثر مما هي مصدومة. هل كان ينوي اطلاعها؟ لقد أخفى سره خلال الأشهر التي

www.liilas.com

امضيناها معاً، ولم يحدثها عن خططه وطموحاته. كان جوناس ممثلاً من الطراز الأول؛ فترشيحه لمنصب حاكم الولاية بات مسألة وقت. وعندما كان يحتج في الليلة السابقة على كلامها... لن أترشح لمنصب سياسي، يا كورنتي... بدا أكثر اضحاكاً، وأقل اخلاصاً في ضوء تعيينه. لا بد أن مركز الإدارة في المحمية كان أحد المشاريع الحساسة، التي تحدث عنها سايلاس. كان جوناس يسير على الطريق إلى القمة. لم يكن يهتم بقضايا الهنود أبعد من اهتمامه بقضيته السياسية.

بدأت كورنتي تعي أن إثارة قضية المعاهدة القديمة في المحاكم، لم تكن إلا جزءاً من مخطط أكبر. كان يجب أن تتنبه، لأن جوناس كان يخطط لبناء قدره.

ألقت بضفيرتها على كتفها. «على المدير أن يكون حاضراً ليلاً ونهاراً لإدارة شؤون المحمية. كيف ستتدبر ذلك، وتبقى على رأس الشركة القانونية؟»

«لو لم تتركي وظيفتك، هناك لعرفت الجواب على هذا السؤال.» وتابع هازئاً. «إنني تركت الشركة في الواقع.»

«إلى متى؟» حاولت أن تحافظ على هدوء صوتها.

«إلى الأبد.»

الحقائق التي كانت تتكشف الواحدة تلو الأخرى، صعقتها «ولكن كل زبائنك...»

«سيُحوّلون إلى أيدٍ أمينة. بخلافك، لا أهرب تاركاً كل شيء في دوامة قبل أن أقفل الموضوع نهائياً.»

لم يمرّ تذكيره إياها، وهي تخرج مسرعة من المكتب مرور الكرام. «هل تريد أن تقول إنك ستسكن في المحمية؟»

«كنت أود ذلك لمجرد الاستمتاع برؤية وجهك. ولكنني أريد الإقامة في منزلي لأستمتع بمباهج الحياة. وعندما يطرأ طارىء، أجيء بالطائرة المروحية. والآن، هل عندك أسئلة أخرى، أم يمكننا أن نركز على مشكلات تومي؟»

كان جوناس سعيداً لأنه حشرها في زاوية ضيقة، خصوصاً أمام بوب الذي لم يوافق يوماً على إقامتها في المدينة. لكنها لا يمكن أن تتوافق مع الزعيم، الذي جاء يبحث عنها. أدارت وجهها إليه، وقالت: «بوب، لماذا تظن أنك تحتاجني؟»

«لأن تومي يثق بك، ويرى جوناس أنك بإجادتك الترجمة ستجعلين الأمور مفهومة بشكل صحيح.»

إنها متخصصة بعلم الإنسان، لا بالترجمة. كان هذا الكلام على رأس لسانها، لكنها لم تقدر على النطق به. كانت تحب الزعيم وابنه. كانا صديقي عائلتها. أما جوناس فمسألة أخرى، وعادت تتحدث إليه: «ألا يؤمن مكتب شؤون الهنود مترجمين عند الحاجة؟»

«طبعاً. وأنت تعرفين ذلك. ولكنني علمت من لقاءاتي مع تومي أنه يريدك أنت، لأنه يعتبرك صديقة، وشخصاً خبيراً في شؤون عالم الهنود وعالم البيض» وراح يرمقها بثبات. فأحست بالدفء يزحف إلى عنقها. كان جوناس في جميع المواجهات يخرج منتصراً.

«لا أظن أن ترجمتي ضرورية. تومي يجيد الأنكليزية.» لكنها كانت تعلم أن تومي خجول ويرتبك أمام الغرباء، فيجيب بكلام مبهم.

مرّ صمتٌ ثقيلٌ قبل أن يجيب جوناس: «الإتصال الرديء

www.liilas.com

بين المكتب والقبيلة ولّد الكثير من عدم الثقة. فإن كنت لا تريدين المساعدة قولي.»

لم يكن تلميح جوناس إلى ردامة الإتصال صحيحاً فحسب، بل خبيثاً أيضاً. لقد جعلها تبدو تافهة إن لم تكن مستعدة لتقديم المعونة. «ماذا فعل تومي بالتحديد؟»

«إنه متهم بقتل فهد ضمن حدود المنطقة المحرّمة.»

هزّت رأسها، وقالت: «تومي لا يفعل هذا!» كان تومي، من بين جميع أبناء الزعيم هو ألطفهم، والأكثر حباً للطبيعة، كما أنه لم يبتعد يوماً عن المحمية. وكان يعلم أكثر من الجميع أن فصيلة الفهود مهددة بالإنقراض؛ وأن من يقتل فهداً يتعرض لأشد العقوبات.

«حسناً، لقد أخبرتني شيئاً كنت أريد معرفته.» قال بجفاف، ونظر إلى ساعته: «يجب أن ننطلق إن أردنا القيام بشيء لأجل اليوم. هل أنت قادمة؟»

عندها قال بوب بلغة الميكوسوكي: «كانت روزا على حق. أنت وجوناس متيمان. أنت مثل أمك.»

كان لا بد أن تكون هذه الملاحظة غير مؤذية، لكن بالنسبة لكورتني فإن بوب قد تجاوز حده. أجابته بلغته: «هل تريدني أن أساعد تومي؟»

«حتماً.»

أفضّل أن نركّز حديثنا على موضوع تومي.»

«وأنا أيضاً.» وقال بالإنكليزية: «هيا بنا.»

امتطوا بعد دقائق شاحنة جوناس، التي انطلقت في الطرق التي تحيط بها المستنقعات، والبراري، والروابي التي ينتشر فوقها شجر النخيل القصير. كانت كورتني لا

تزال تحس بلمسة يد جوناس على ساقها، والتي حصلت صدفة، وهي تصعد إلى المقعد الخلفي. فقد حملتها على أن تكون حذرة منه.

راحت تنظر عبر النافذة، تمتع عينيها بالمناظر الخلابة التي كانت تمر بها، لكنها لم تؤخذ بأي منظر بسبب انشغالها بعودة جوناس غير المتوقعة إلى حياتها. كانت وظيفته الجديدة قد وضعته في مدارها مباشرة، وهو أمر لم تتخيله في أكثر أحلامها إثارة.

ظنت بالأمس أنه غادر حياتها إلى الأبد. وكمعجزة، ها هي الآن في شاحنته تتجه إلى ميامي في رحلة عمل رسمي. لكنهما لم يكونا متباعدين كما في تلك الأثناء.

لم يبدُ على جوناس أنه تأثر في الليلة الماضية بالمشهد العنيف قيد أنملة. لكنه لو نظر إليها للاحظ أنها تأثرت بشدة.

كان عليها أن تتمالك نفسها من أجل تومي، لكن ذلك بدا مستحيلاً. فقد كانت تتألم بشدة.

لقد سحر جوناس كل من كان حوله. روزا وبوب ويلي... لم يملك أحد مناعة تجاه سحره. عندما تنفرد بالزعيم ستحذره. فإن ما يظهره جوناس من الاهتمام والحساسية ليس إلا إدعاء، وذلك جزء من مخطط لتسلق سلم الأمجاد السياسية. ولكن هل سيصدقها بوب ويلي؟ لقد بدا الرجلان حميمين في صداقتهما، وهذا قلّما أظهره الزعيم.

بعد نصف ساعة، ظهرت ناطحات سحاب ميامي أمامهم، وكانت أشعة الشمس تنعكس من زجاجها وصفيحها الأسود. فلا يبدو أنها ستمطر هذا الصباح. نظرت كورتني

www.liilas.com

إلى الخط اللامتناهي من مؤسسات الطعام السريع، التي كانت تخفف بالطريق العام. ما كان يدهشها دائماً، هو أن حاضرة ميامي الضخمة الصاخبة هي جارة الأفرغلايدس الهادئة، والوادعة، والجميلة في غموضها.

قاد جوناس الشاحنة باتجاه مجمع البلدية. وبعد وقت قليل، وصلوا إلى السجن ليتحدثوا إلى تومي. تحدث جوناس إلى الفتى البالغ تسعة عشر عاماً لمدة ساعة، وكان يطلب من كورتني أن توضح له من وقت لآخر. كان بوب يصغي بهدوء، كما كان يعطي من وقت لآخر ملاحظة، أو يومىء برأسه. ثم استأذن جوناس. ولما عاد بعد فترة قصيرة، كان الفتى قد أطلق سراحه بكفالة. توقف الأربعة قبل عودتهم إلى المحمية يتناولون دجاجاً مشوياً.

قاد جوناس شاحنته إلى مطعم روزا، ورافق بوب وابنه إلى شاحنتهما. لوح بيده رداً على شكرهما الجزيل، مذكراً إياهما أن على تومي أن لا يصطاد حتى تنتهي القضية.

خرجت كورتني من الشاحنة، وردت بابتسامة على عرفانهما بالجميل لها ولجوناس أيضاً. وعندما غادرا، التفت جوناس لينظر إليها فالتقت عيونهما.

«استخدمت مالك الخاص لاطلاق سراحه، لماذا؟»

«لأنني أعرف أنه لم يقتل الفهد، وقريباً ساحصل على اسم المذنب.»

تقارب حاجباها الدقيقان. «لكن تومي لم يعطيك أي أدلة قطعية.»

تمتم. «هذا صحيح، لكنني تعلمت منك أشياء كثيرة خلال الشهرين الماضيين، مما أوضح بعض النواحي.»

«أي نواحٍ؟»

استند جوناس أزاء الشاحنة، وقد ثنا ذراعيه. «تكلمت في إحدى الليالي بإسهاب عن الميكوسوكي، ذكرت أنهم لا يصطادوا إلا ما يلزمهم للطعام للاستمرار. وبما أنه ابن بوب ويلي، فلا بد أنه يعرف القانون ولا يجرؤ على خرقه، وإلا فعليه أن يواجه والده، ناهيك عن المحاكم.»

شعرت كورتني على الرغم من كل شيء، باحترام قوي لذكاء جوناس.

«أتظن أنها عصابة البيض المشاكسين القادمين من نابيلز، التي تحدث تومي عنها؟»

«إنني أكيد. لقد طلبت تشريحاً لجثة الفهد. فقد مات من الجروح التي سببتها له عجلات الشيفروليه المحملة، التي شاهدها تومي في طريق الولاية رقم ٩٣٣٦. فالجرح الناجم من الرصاصة في قدم الفهد كان سطحياً، ولا يمكن أن يحصل من بندقية تومي.»

«لقد لاحقت موضوع السيارة في دوائر نابيلز ولا بد أن أحصل على اسم المالك. ولسوء حظ تومي، فإنه كان في المنطقة التي وجد فيها الجوّالون جثة الفهد.»

«وماذا عن كونه يمارس الصيد؟»

«لقد تساهل القاضي. فحقوق الهنود سابقة للقانون. الفلايدس هي الأرض التي كانوا منذ قرون يصطادون فيها. فما من محكمة ستمنع تومي من الصيد في أرض تعتبر بمثابة حديقته منذ نعومة أظافره. لكنني حذرته كي يبقى بعيداً عن مزارات السياح.»

أومأت كورتني موافقة. فما فعله جوناس لتومي سيكون

www.liilas.com

خبراً هاماً، ويقربه من قلوب أبناء القبيلة أكثر. كان علي كورنتي أن تعترف بأن ما فعله جوناس كان عملاً طيباً.

«إنني أكيدة أن تومي يدين لك بالشكر. فالوقوف وراء القضبان أسوأ ما يمكن أن يحدث له. إنه سيتزوج قريباً. ويكون قادراً على المضي في مشروعه الآن.»

«شكراً للمساعدة. كان مرتاحاً في إجاباته وقدم كثيراً من المعلومات الهامة التي احتاجها للقاضي. فوجودك أحدث فرقاً.»

نظرت كورنتي بعيداً، وأحست بتوتر لم تستطع تعليله نتيجة صراحته. لقد ذكّرها بجوناس الذي أحبته، قبل أن يدمر أحلامها.

«ستكون هناك جلسة أخرى للإستجواب، بعد أن أكون قد جمعت المزيد من الأدلة. سيريدك تومي أن تكوني هناك.»

ضمّت ذراعيها على وسطها، وقالت: «ومتى تظن سيكون ذلك؟»

«الأسبوع المقبل إن استطعت تأمين ذلك. لماذا؟ أتخططين للاختفاء كرة أخرى؟» قال ساخراً: «لا تفعلي هذا بسببي، يا كورنتي. سيكون ذلك خسارة كبيرة.»

أحست بأنفاسها تضيق. «سألت لأنني لن أكون هنا الأسبوع القادم. فسأذهب صباح السبت إلى جدتي.»

بدا فمه قاسياً. «لكم من الوقت؟»

«لشهر.»

«كم تبعد المستوطنة عن هنا؟»

«إن لم تكن تمطر، ساصل في غضون يوم بواسطة القارب. ولكن إذا أمطرت بشدة فلن أصل قبل يومين.»

«أين تسكن، بالتحديد؟»

«في محمية رد مانغروف، قرب أوكالوا كوتشي سلو. فالمستنقع يمنح العائلة تربة كافية كي تزرع المحاصيل. إنها مشهورة بوفرة الخزامى التي تنبت هناك، لكن لا يوجد صندوق بريد.»

مرّر يده في شعره فتشعّث: «هل ستقومين بالرحلة منفردة؟» قال محاولاً أن يتجاوز سخريتها.

أجابت: «نعم.» ولم تتطرق في أحاديثهما السابقة إلى هذه التفاصيل الشخصية. «أرسلتني أمي في أول رحلة لي إلى هناك، عندما كنت في السادسة عشرة وبدأت أقوم بها منذ ذلك الحين. كانت أمي تعيش في أحد بيوت المحمية آنئذ وكنت أزورها هناك. لكن كان من المتوقع أن أمضي بعض الوقت مع جدّي أيضاً.»

سألها متمتماً: «كيف كان يشعر والدك حيال ذهابك منفردة في النهر وعبر الغابات؟»

اضطربت كورنتي ازاء إصراره. «لم يكن يعلم لأنني لم أكن أخبره. أنت تعلم أن والديّ انفصلا بعد ولادتي. وعندما كبرت ودخلت المدرسة، أصبحت أعيش معه تسعة أشهر في السنة وأمضي الصيف مع أمي. كان يحبها لدرجة أنه لم يكن يسألها كثيراً من الأسئلة، أو يطلب أشياء غير ممكنة. كانت أمي مستقلّة كثيراً.»

«هل كانت تبادله الحب؟»

«نعم. كثيراً لدرجة أنها أعطته إياني.» بدت عيناها داكنتين. «لم ترد لي أن أمر بتجربة، وهي تحاول التأقلم في عالمه النبذ.»

www.liilas.com

«النبذ؟» وتقوس احد حاجبيه مظهراً عدم التصديق.

«لم يسمح لأبي أن يعيش في المحمية مع أمي. لذا، تزوجها في كنيسته في فورت لودردايل. وقد أسسا منزلاً هناك، لكن أمي لم تتكيف، برغم أنها كانت خريجة مدرسة ثانوية، والتحقت قبل أن تلتقي بوالدي بكلية للراشدات. فقد أرادت أن تعيش لمفاهيمها الخاصة. وقد شعرت بالغربة في عالم أبي، على ما أعتقد. لم تنجح حياتهما. ولكن عندما عادت إلى المحمية رُفضت بازدراء. لذا، وُلِدتُ في كوخ جدتي. كان أبي يزورنا دوماً. وعندما دخلت صف روضة الأطفال في المدرسة أخذني معه. وانتقلت والدتي فيما بعد للعيش قرب روزا.»

«وأنت، هل رُفضتِ؟»

«ليس تماماً. يعتبرونني امرأة غريبة الأطوار لا أكثر ولا أقل.»

مرّ صمت طويل. «ظننت أنك تخططين لزيارة أبيك.»

جوناس لا ينسى شيئاً. «سأزوره بعدما أنتهي من هنا.»

«ولماذا تريدين زيارة جدتك؟»

قالت في نفسها لأنني أحتاج إلى الراحة التي لا يمكن أن يعطيني إياها أحد إلا عائلتي، وذلك بسببك. لكنها أجابت: «قلت لعائلتي، وأنا توّاقة كي أرى مرة ثانية جدتي، التي كانت حياتها مثيرة للاهتمام، وأود أن أدون اقاصيصها قبل أن تتوارى.»

بدا جوناس غارقاً في التفكير. «في هذه الحالة لن أطلب جلسة في المحكمة قبل عودتك. أتمنى لك سفرة آمنة.» هز رأسه قليلاً، وعاد إلى الشاحنة، وقادها مبتعداً.

«ستكون آمنة.» همست في الفراغ، وأحست بالم عميق وبرغبة في البكاء. هنالك شيء خطأ. لقد قطعت العلاقة بجوناس، ولم يعد هو يريد شيئاً منها، فلماذا تبدو حياتها من دونه مستحيلة... برغم كل ما تعرفه؟

ربما لأنه خلال الشهرين الماضيين لم يفترقا. لقد عرفا أوقاتاً من المشاركة والحب، واللهو أيضاً. كان جوناس يعشق الغطس والتقطت منه عدوى هذه الرياضة. كيف يمكن أن يكون كل تقاربهما تمثيلاً من جهته؟ كانت واثقة من أنه يهواها. فخلال شهرين من علاقتهما كانت لورا كأنها غير موجودة. أو هكذا ظنت كورتني.

مشت وراء مطعم روزا، وهي غاضبة من نفسها لتأرجح عواطفها. ثم عبرت في طريقها إلى الكوخ في بركة موحلة. كان في داخلها هاجس أن الأشياء لن تعود كما كانت سابقاً، وخاصة أثناء وجود جوناس في رد مانغروف كمدير للمحمية.

وبما أنه تقدّم منذ عام للمنصب، فلماذا لم يذكر لها ذلك؟ هل طلب منه الزعيم السكوت حتى يصبح كل شيء رسمياً؟ أم أنه اعتبره أمراً لا يدعو للمناقشة، لأنه كان يريد التخلي عن كورتني متى خدمت أهدافه؟ التفسير الأخير هو المعقول.

أمضت كورتني في بعض الأيام التالية معظم أوقاتها في تسجيل مقابلات مع سكان المحمية، وادخالها في أقراص حاسوبها. لقد نسق الحاسوب الكلمات وأعد لائحة بالمفردات. أعطت فقدمت لكل مادة صوتية رمزاً. كان ذلك عملاً متعباً، ولكنه كان ضرورياً للوصول إلى لغة مكتوبة.

www.liilas.com

لقد حاول العديد، وكان معظمهم من ارساليات القرن التاسع عشر القيام بعمل مماثل. لكن ما كانت تقدمه كورتني، والذي كان جزءاً من أطروحتها كان هو الأكثر اكتمالاً وتماسكاً وتقدماً وحداثة. وكان الذي ساعدها في ذلك، هو تمضية السنوات في استعمال لغة الميكوسوكي التي كونت شخصيتها.

رتبت كورتني نفسها بعد ظهر يوم الجمعة، ووضعت اللمسات الأخيرة لرحلتها. فوجدت قاربها في مكان الانطلاق في القناة المائية، التي تتجه شمالاً جاهزاً. ولاحظت أن كل العدة التي اصطحبتها من آلات تسجيل، وبطاريات وأشرطة، ناهيك عن عدة التخييم، ستجعل القارب يغوص في مزيد من المياه. ولم تكن عادة لتهتم، ولكن تنبأت نشرة مكتب الطقس بعاصفة مدارية ستستمر أيّاماً. مما يجعل السفر في المياه حذراً.

لجأت في هذه الظروف قبل التاسعة للنوم، لتبدأ رحلتها في الصباح التالي باكراً. فإذا وصلت إلى منتصف الطريق قبل أن تجعل الرياح الأمور صعبة، ستكون بألف خير. ولسوء حظها لم تستطع النوم، وبقيت صاحية بمزاج معكّر. واغتاظت أكثر، لأنها كانت تعلم في قرارة نفسها، أن جوناس هو سبب أرقها.

منذ الرحلة إلى ميامي لم تره. افترضت أنه يمضي الساعات الطوال في المؤسسة القانونية ينهي أعماله، ما يتبقى من وقته تستهلكه لورا. مجرد التفكير بلورا بين ذراعيه، وفمها على فمه، دفع كورتني إلى الدش لتحضر نفسها للسفر.

لم تكن الغيوم المنخفضة فألاً حسناً للرحلة، فيما كانت قبيل فجر ذلك اليوم تجذف بعيداً عن الضفة، حتى أفعى الموكاسان الملتفة حول شجرة الملالوكا كحزام من النار، تنتظر طريدة غافلة، بدت أقل تنبهاً مما يجب. بدت في البعيد حذأة على سطح المياه، تستعد لالتقاط حلزونة للإفطار.

فاتها تغريد العصافير، وهي توجه القارب بهدوء وبراعة على سجادة من زنابق المستنقعات باتجاه الممرات المائية الواسعة. أظهر لها التيار المندفع بقوة أن هناك رياحاً تتكون فوق العشرة آلاف جزيرة.

جذفت بسرعة وشدة عبر المياه المكشوفة، وتوقفت ظهراً لتناول شطيرة قرب أماكن تكاثر طيور مالك الحزين، التي كانت تشكل أولى علامات الطريق التي تتبعها عبر الأرغلايدس. إنها أكمتها المفضلة، في جزيرة صغيرة من الأشجار والأعشاب المسننة. إنه مكان فاتن يؤمن الحماية من الرياح، لكن لم يكن لديها متسع من الوقت لترتاح في الشيكي المهجور ـ الذي هو كوخ مسقوف دون جدران ـ ينتشر في الغلايدس بكثرة.

تابعت تجذيفها بالقرب من شجرة تين ملتفة حول شجرة أخرى في عناق مميت. ستكون الشجرة المضيفة في الوقت نفسه من العام المقبل قد ماتت. أين ستكون؟ سألت نفسها

أحست بفراغ عميق يملؤها، فراحت تتألم لفقدان جوناس. فقد أحبته، وهذا ما آلمها. لقد أحبته رغماً عن كل شيء، ولم تستطع إبعاده عن فكرها.

كانت حزينة لمجرد التفكير بأنها قد تكون أخطأت بشأنه وأنه لم يكن الأنسان الذي اعتقدت. فراحت تجذف بمزيد من

www.liilas.com

السرعة. لكنها أحست في تلك اللحظة أنها لم تكن بمفردها. حذرها الوخز المريب في ظاهر عنقها أن هناك شخصاً آخر.

التفتت من فوق كتفها تلقي نظرة. لم يكن هناك شيء يعكّر الهدوء الضبابي. كانت تأتي في سن التاسعة بمفردها إلى هنا، ولم تلتق أي قارب آخر. كانت المنطقة بعيدة جداً وغير ودية. فلا بد أن ميكوسوكين آخر خرج ليصطاد.

أخذت نفساً عميقاً، وقررت أن تعوض الوقت، وراحت تجذف بشدة وسرعة. كان عليها أن تعبر قبيل المساء البحيرة الواسعة لتخيّم في التلّة القريبة، التي كانت الربوة الوحيدة فيها تبقى في هذا الوقت من السنة جافة.

وعندما أصبحت في منتصف الطريق عبر البحيرة المكشوفة راحت الأمواج تعنف مزبدةً. انخفضت سرعة كورتني إلى زحف بطيء، وخافت أن يغرق القارب. استحضرت كل قواها الداخلية، وبراعتها في التجذيف، وراحت تشق طريقها ببطء، لكنه كان نضالاً اتسم بالربح والخسارة.

أطلقت، وهي منغمسة في التركيز، صيحة مفاجئة عندما أصاب مجذافها ظهر أحد التماسيح الكبيرة، الذي كان يعوم تحت الماء، التي بدت كأنها تفور بصورة موازية للقارب.

غطى العرق كل جسدها، وهي تستعمل أحد المجاذيف لرد الضربات القوية الموجهة من ذنبه إلى القارب. ارتفعت في نفس اللحظة موجة عارمة فوق مقدمة القارب فتركتها مبتلة تماماً. فلا بد بهذه السرعة البطيئة أن يغرق القارب، فتضيع كل تسجيلاتها وآلاتها الغالية.

أحست لأول مرة في حياتها بخوف شديد. فإذا تكررت هذه الموجة لعدة مرات فلن يبقى ما يحميها من التمساح، الذي اقترب كثيراً، وراح يحرف القارب عن مساره.

فحاولت أن تجذف بالقارب في شبه دائرة، لتبقي بعض مسافة بين التمساح وبينها. شاهدت في تلك الأثناء قارباً جلدياً يقترب بسرعة مدهشة منها. لم تكد تلمح قائدَهُ ذا الشعر الأسود حتى اقترب من التمساح، مما استلفت انتباهه.

جوناس! لم تستطع أن تصدق

www.liilas.com

الفصل الرابع

صرخ «كورتني، تابعي التجذيف، وساحاول أن أبعد التمساح. سالاقيك في الجهة المقابلة.» نتيجة لخبرته الناجمة من التدريب لمدة سنوات، جذف جوناس عبر الأمواج وتبعه التمساح، مما أفسح لكورتني في المجال كي تفرغ القارب من المياه الفائضة، ثم انعطفت باتجاه الممر المائي الصغير الذي كان يفضي إلى تحصينات كالوسا القديمة، التي هي جزء من آثار مستعمرة هندية تعود إلى القرن السادس عشر.

كانت معركة حقيقية ضد عناصر الطبيعة إلى أن وصلت كورتني إلى الشاطىء. وبعد ربع ساعة وصل جوناس بقاربه الجلدي. ففتح حافته، وقفز إلى الشاطىء يساعدها في جذب القارب إلى الأعشاب المسننة.

لقد جعلت الرياح المناورة شبه مستحيلة. كانت تستنفد طاقاتها. ولما شاهد جوناس كمية الماء التي ما زالت في القارب، اقترب بحنان والتقت العيون، التي كانت حائرة. «هل أنت بخير؟»

«نعم.» همست. وهي ترتعش، وأومأت برأسها. وهي تحس بكثير من العرفان بالجميل. تعجبت من أين ولم جاء، وقد هزّتها رؤيته، لكنها قدمت صلاة الشكر برغم كل شيء.

«إذا بدأت في اعداد مخيّم لنا، فسابدأ بإفراغ القارب. آمل أن لا تكون معدّاتك قد تضررت.»

بللت شفتيها الجافتين، ونظرت إلى الشيكي الموجود على بعد بضعة ياردات، وقد أتلفته عوامل الطبيعة. «يمكننا أن نفرغ الحقائب وكل شيء آخر على أرض الكوخ. ستمطر بعد دقيقة.»

تأمل جوناس السماء القاتمة وقال: «ساسرع.» وفيما كانت كورتني ترتدي ثياباً جافة، راح هو ينقل معداتها إلى الكوخ في رحلات صغيرة. ولما انتهى جلب أغراضه من القارب الجلدي.

ساعدته كورتني في قلب القارب رأساً على عقب لإفراغه من الماء. قال جوناس مقترحاً: «فلنحمله إلى الشيكي ونقلبه على جنبه كواقٍ من الرياح.»

أظهرت لها الأشهر التي أمضتها معه قدرته على تدبير أموره في العراء. وهذه البراعة لم تظهر على أكمل وجه أكثر من الآن. إن تدخُّل جوناس أظهر لكورتني، التي اعتادت أن تنفذ كثيراً من الأشياء منفردة، أن هناك من يحميها ويهتم بها. وهذا الاحساس بث في جسدها حرارة، وجعلها تشعر بقرب إليه برغم كل شيء.

«تلك خدعة ميكوسوكية إن كنت لا تعلم. وربما كانت في عروقك بعض الدماء الهندية.» قالت بمزاح، وهي تحاول إخفاء مشاعرها الحقيقية، التي كانت تهدد بالبروز إلى العلن.

رفع طرفاً من القارب، وألقى باتجاهها نظرة شريرة. «أكره أن أخيب أملك، ولكن هذه خدعة قديمة من خدع القراصنة. وطبقاً لروايات العائلة، إني أتحدر من قرصان أسود الشعر أرهب كل مستوطنات البحر الكاريبي.»

قالت ساخرة: «شكراً للتصحيح.» وهي تظن انه اختلق الرواية. ففي كل مفاخرات سايلاس باين لم تسمع هذه القصة من قبل. لكن لا بد أنها تفسر لون جوناس المميز، الذي يبدو أخذه عن أمه، التي كانت سيدة نظيفة التقت بها كورتني في عدة مناسبات وأحبتها كثيراً.

رفعت كورتني الطرف الآخر للقارب ومشيا معاً، وكان المجهود الذي بذلته في تحضير المخيم، قد منعها من الإنغماس في التفكير في الليلة القادمة عليهما، وفي الأسباب التي حدت بجوناس في بداية الأمر للحاق بها. لو لم يظهر في اللحظة المناسبة...

«لا تفكري بالأمر.» تمتم بصوت أجش عندما وضعا القارب باتجاه الريح. «لقد انتهى كل شيء.»

أطرقت دون أن تقول شيئاً، وتحاشت عينيه، وهي مدهوشة من قدرته على قراءة أفكارها. «لقد أحضرت قماشاً مشمّعاً.»

«وأنا أيضاً. إن أنت أعددت القهوة، فإنني سأبني جدارين مؤقتين.»

نظرت إليه من زاوية عينها، وراحت تتأمله وهو يفتح أحد المشمّعين، ويتفحص الشيكي. «لدينا كل راحة المنزل.» قال، وهو ينتبه لنظراتها. «مم تبنى هذه الأكواخ؟» سأل، بفضول، وهو يربط الحبال إلى الرافدة.

«من النخيل القصير.»

«أظن أن الأرضية تكفي لنا وللعدة.» بعد عدة تعديلات أعد جوناس لهما ملجأ أميناً. وفيما انتهى من ربط أسفل المشمّعين، انهمر المطر.

«أرى أن توقيتنا كان دقيقاً.» ونهض من قرفصائه ونظر إليها، وهي تملأ فرن الكولمان الصغير. لوى طرف فمه بشكل جذاب، وقال: «لا أصدق عيني. ظننت أنني سأتعلم طريقة الميكوسوكي في إضرام النار. لقد خاب ظني.»

ضحكت كورتني ضحكة خافتة، وقالت: «أحاول أن أدمج بين عالمين.» وبعد دقائق، كانت قد أعدت قهوة ويخنة لحم. فأخرج جوناس من كيسه رغيفاً من الخبز، والجبن الفرنسي. وجلسا متقاربين، بتوافق ضمني، على غطاء وضعه جوناس على أرض الكوخ المتشققة. وفوق رأسيهما يتدلى من الأعمدة فانوس مضاء.

أمطرت بشدة كما لو أن السماء كانت ستنضب. مما أبعدهما عن سائر الدنيا. حل المساء في الأثرغلايدس، لكن العاصفة القوية زادت من سواد الليل. أما المطر فقد برّد الأجواء، برغم أن الرطوبة جعلت كورتني دافئة ودبقة.

كان قميص جوناس مبللاً، وتتدلى على عنقه خصلات من شعره الأسود المجعد. كان باستطاعتها وهو على مقربة منها، أن تشم رائحة الرجولة ممزوجة برائحة الصابون الذي كان يستعمله دائماً. لكنها أحست الآن، أنها تعرف كل شيء عنه، لا سيما جسده الرشيق والصلب، الذي يتحرك بتناسق رجولي محكم.

تذكرت أوقاتاً أخرى عندما كانا يتكاسلان بعد السباحة على متن اليخت، بالقرب من الصخور المرجانية. لكن، في تلك الأوقات، كان هناك دائماً شخص ثالث... صديق أو فرد من الطاقم يقترب، ويفسد خلوتهما. وفي بيته لم تقدر كورتني أن تنسى مدبرة منزله وبستانيه.

www.liilas.com

لكن كانا هنا في أعماق الفلايدس بمفردهما. وكانت هذه الفكرة المجردة قد بعثت في جسدها المرتعش رعشة لذيذة.

«جوناس.» وبلعت لعابها بصعوبة. «كنت لأفقد جميع معداتي اليوم لولاك.»

وضع فنجان القهوة أرضاً. «لما كان هذا كل ما فقدت.» قال بغلاظة: «أعرف مهووسي الغابات الذين لا يجرؤون على دخول الفلايدس منفردين، وطبعاً دون سلاح.»

«الهذا جئت؟ لتحميني؟» سألت وأحست بقلبها يقفز إلى حلقها. وتلا ذلك صمت طويل.

«كان ضرورياً أن يقوم شخص بهذا منذ زمن طويل.» وفي اللحظة المليئة بالتوتر، سكبت لنفسها فنجان قهوة آخر وسألت: «ما السبب الحقيقي؟ بعد تلك الليلة...»

«أنا مسؤول عن هذه الأرض الآن.» قاطعها: «وكل ما يحدث فيها يقع ضمن سلطتي. حتى العذارى الهنديات اليائسات.»

أحست أنه لم يكن يقول الحقيقة. «لحقت بي كل الطريق من رد مانفروف.»

كسر قطعة ثانية من الخبز، ونظر إليها كأنه يمتحنها، ثم قال: «هذا صحيح. كم لزمك من الوقت لتدركي أنني ألاحقك؟»

«أحسست بشيء بعد الغذاء، لكنني افترضت أنه أحد أفراد القبيلة. لم لم تناديني؟»

حك ذقنه، التي لم يحلقها ليوم خلا، كأنه يفكر، وقال: «أتريدين الحقيقة؟» أطرقت كورتني وقلبها يطرق. أزاح

الزبدية والفنجان جانباً، وتمدد على جنبه في مواجهتها، وأسند رأسه على مرفقه. ظنّت أنّه يشبه فهداً أسود رشيقاً؛ برغم أنه بدا وكأنه متعب. إلا أنها ظلت محترسة منه.

لم يبعد ناظريه عن وجهها وهو يتكلم. «أحسست هذا الصباح كما أحسست يوم كنت غلاماً... أمضي في مغامرة عظيمة إلى المجهول. اختبأت خلف نخلة، ورحت أراقبك وأنت تجذفين في وحول المستنقع. جعلت الأمر يبدو سهلاً. لقد ذكرتني بأميرة هندية في قصة قديمة، بشعرك المضفور المتدلي على كتفك. ظهرت كأنك سحرية في القارب العائم على الزنبق. شعرت أن إزعاجك سيدنس شيئاً مقدساً.» بدا صوته خشناً مع بعض العاطفة الخفية.

حيرتها كلماته ونبرة صوته، على ما يبدو. لقد بدا صادقاً... بل رهيباً..

«أخاف أنني لا أصلح للدور سروال الجينز وحذاء الرياضة القديم.» قالت باستخفاف.

«تعلمين جيداً أنني لا أقصد الملابس. أنت فريدة، يا كورتني. لاحظت هذا أول مرة تعارفنا في الشركة. الآن بدأت أفهم لماذا.»

عادت بأفكارها، تتذكر شحنة الإثارة المفاجئة التي أصابت جسدها، عندما قال سايلاس: «كورتني، هذا ابني جوناس، الذي عاد للتو من واشنطن. أوقفن كل ما تقمن به واتركنه للصباح، يا فتيات. أعمال جوناس يمكن أن تشغلكن إلى الأبد.»

رفعت كورتني يومها عينيها عن شاشة الحاسوب لترى عينين خضراوين مفعمتين بالحياة، ومميزتين لقد

www.liilas.com

ضاعت. كان يشبه والده في القوام والأناقة، وهنا ينتهي الشبه. وكان ذلك اللقاء قد بدا وكأنه يعود لقرن خلا، قبل أن تعرف ما يمكنه أن يقوم به، وراحت تتأمل بحزن.

وقفت، وهي تحاول الهرب من أفكارها، «ساعود في غضون دقيقة.» تمتمت وأسرعت تحت المطر.

وعندما رجعت، وجدت أن جوناس قد أعد الطعام والصمون. فأسرعت إلى حقيبتها الكبيرة وأخرجت الناموسية، وقالت: «جوناس، مهما كانت أسبابك للحاق بي أشكر الله أنك وصلت في الوقت المناسب. أنا مدينة لك بحياتي.»

كان الهواء يعود مع الدفء. «هل هي عادة ميكوسوكية أن يكون المرء مديناً لمن ينقذه؟»

فرشت الناموسية على كيسي النوم خاصتيهما لتمنع يديها من الإرتعاش. «كان تعبيراً بلاغياً.»

تمتم: «أنا آسف لسماع هذا. لقد وجدت كونك مدينة لي أمراً ممتعاً.»

«لا تقل كلاماً كهذا.» وراحت تخلع حذاءها.

«لماذا؟ ألأن الفكرة تقلقك كما تقلقني، برغم كرهك لطريقتي في الحياة؟ أم لأنك لا تثقي بي؟»

تجمدت يداها. والتفتت إليه وحدقت به. «ألهذا الحقت بي؟ كي تقوم بإغوائي في الغابة وتشبع خيالك، ثم تعود إلى عالمك؟»

لمعت عيناها منذريتن بخطر شديد، فيما كان يقف على قدميه. «أول مرة أثرتِ فيّ أحاسيس قوية التقينا فيها. وكان يمكن لأرضية المكتب أن تساعدني في تحقيق

غرضي.» واستوى في وقفته. «والآن بعد أن وضحنا هذه الناحية، هل هناك مزيد تريدين أن تعرفيه؟»

بلعت لعابها بصعوبة. «لا أريد أن أقيم علاقة خاصة معك، يا جوناس.»

«وهل طلبت ذلك؟»

احمر خداها من الإذلال. «لِمَ جئت؟»

«أسأل نفسي في هذه اللحظة هذا السؤال أيضاً.» وبعد هذه الملاحظة الباردة أرتدى سترة جلدية، وأختفى تحت المطر.

بدت الدقائق التي غابها ساعات. استغلت كورتني غيابه، فارتدت قميصاً فضفاضاً، وأعدت كيس نومها، ورشت نفسها بمضاد للحشرات، كما أنها لم تطفىء النور. فقد يساعده في إيجاد طريق العودة.

وعندما رجع، أغمضت عينيها لتبدو نائمة. بعد أن أعد كيسه لينام، أطفأ الفانوس. لم تستطع أن تسمع، بعد أن اخلد للنوم، سوى دقات قلبها وصوت المطر يرشق السقف القشّي.

كانت مساحة الشيكي تبلغ تسع أقدام بست عشرة قدماً تقريباً. وكان لا بد لكيس نومه ومع كل المعدات والمؤن أن يلاصق كيسها. فكان قريباً بشكل مزعج.

كان هادئاً جداً فظنت أنه نام، مما جعلها أكثر قلقاً وهي تحاول أن تجد وضعية مريحة.

«الأفضل أن تقولي ما في خلدك كي نستطيع كلانا أن ننام.» تمتم هذا، وراح يداعب ضفيرتها فأحست بلمسته تنتقل إلى كل أنحاء جسدها، فاختنقت أنفاسها.

www.liilas.com

قالت بسرعة: «متى كنت تخطط لإخباري عن وظيفتك الجديدة؟ لم أكن أعلم أنك تنوي أن تترك عملك القانوني لتتفرغ لهذا الأمر... الغريب عنك.»

انتظرت، لكنها لم تجرؤ على الإلتفات. «جوناس؟» الصّت لما لم يجب.

«اتصلت بك من واشنطن لأخبرك عن تذكرة السفر التي أرسلتها لك في البريد، لكنني علمت أنك غادرت الشركة، ولم أجدك في الشقة أيضاً. أردت إعلامك بالأمر قبل أن يصبح رسمياً.» صمت قليلاً وظلت كورتني صامتة. «لقد شغلتني أمور الهنود منذ أيام دراستي في كلية الحقوق.» ويتابع: «بعد أن تعارفنا وعلمت الشيء الكثير عن خلفيتك الثقافية، ظننت أن تعييني سيفرحك. لقد كنت مخطئاً.»

دفنت كورتني وجهها في ذراعها، فلقد آلمها كلامه ونبرته الصريحة كذلك. كيف يظنها ستفرح بمنصبه، بعد أن انتهى مستقبلهما معاً؟ إنّ إحباطه بلورة أحست بالألم يعصر قلبها، وحاولت أن تبتعد عنه قدر الإمكان.

«نامي، يا كورتني. لقد كان نهاراً صعباً.»

«تصبح على خير.» قالت هامسة. وللمرة الثانية اخلدا للنوم على إيقاع المطر الرتيب. كانت تحس أنها ستبقى مشدودة إليه دائماً، وستمضي بقية حياتها حزينة لفقدانها شيئاً كان يبدو مستحيلاً دائماً.

نامت بأعجوبة وعندما استيقظت، وجدت جوناس بعد طعام الفطور. ولما كان المطر توقف خلال الليل، نهض جوناس، وأزال القماش المشمّع ليترك الهواء يتلاعب. فقد وضب كل شيء في القارب الجلدي وفي الكانو.

استفاقت كورتني على صداع شديد وأحست بأعياء، فلم تجذبها رائحة اللحم في المقلى. وكان الأسوأ أنها شاهدت كابوساً أعاد إحياء ما عانته مع التمساح. ولو لم يقترب منها جوناس، ويضمها بين ذراعيه لدقائق حادباً عليها بصوته الخفيض الحنون لما استطاعت النوم ثانية.

كانت في أعماق نفسها شاكرة لجوناس إصراره على مرافقتها في باقي الرحلة. والآن، بعد أن زالت الصدمة، أخذت تشعر برعب كلما تذكرت أحداث اليوم السابق. فقد عرض نفسه لخطر مميت عندما اقترب لإنقاذها.

أذهلها صوته: «هل أنت جاهزة للرحيل؟ لا تعجبني هذه الغيوم المتلبدة.»

نظرت حيث كان ينظر إلى السماء، وقالت: «ستمطر اليوم، ولكننا سنكون قد وصلنا إلى بيت جدتي. وعلى كل حال، لقد تخطينا الجزء الأخطر من رحلتنا. جوناس، علي أن أقوم بشيء في البداية. فإن كنت لا تمانع، أود أن تسبقني عبر هذا المعبر إلى اليمين. أنه يضيق إلى ممر من زنابق المياه كالذي عبرناه في البداية. سأوافيك بعد دقائق.»

بدا جوناس كأنه يريد أن يقول شيئاً، ثم فكّر ملياً. تأمل عينيها، وظنّت أنها ترى نظرة حزن في وجهه، قبل أن يمضي مطاطىء الرأس إلى الضفة. ربط حافة القارب الجلدي، وراح يجذف بعيداً.

تأملته صامتة، ومعجبة ببراعته إلى أن اختفى. فتوجهت إلى حقيبتها الكبيرة لتبديل ثيابها، واحتراماً لجدتها، لم تكن تظهر في كوخها إلا بملابس ميكوسوكية، ولن يكون اليوم استثناءً.

www.liilas.com

بعد أن ارتدت ثوبها الطويل المصنوع يدوياً بسرعة، فكّت ضفيرتها ومشّطت شعرها الجوزي، الذي تدلى على كتفها ليلامس خصرها.

لوت ابتسامة ساخرة زواياً فمها. فالعذارى طبقاً للتقاليد الهندية يتركن شعورهن محلولة وغير مزيّنة. كانت كورتني تعتبر طاعنة في السن، لأنها بلغت السادسة والعشرين، ولم تتزوج بعد، لكنها حافظت على عذريتها. انتعلت الحذاء الجلدي المزين بالخرز، الذي صنعته والدتها، وأسرعت إلى القارب وحقيبتها الكبيرة في يدها.

كانت الريح معتدلة، إلا أنها أطارت شعرها إلى الوراء فبدا كراية خفاقة وهي تجذف باتجاه جوناس بهدوء. أخرج طائر ملاعيقي وردي اللون رأسه من تحت سعفة نخيل رطبة، كأنه يريد أن يرى إن كان الشاطىء خالياً، لكنه جدّ مسرعاً حينما رأى كورتني.

تابعت كورتني التجذيف، فوصلت إلى الزنابق الموجودة تحت الأشجار. لكنها لم تجد جوناس. هذا الجزء من الفلايدس هو متاهة تاريخية من السرو والمانغروف الأحمر والمئات من المستنقعات. إن أي شخص غير خبير بالمنطقة قد يضيع ويختفي دون أثر.

بدا قلبها يطرق. «جوناس؟» انتظرت، لكنها لم تلق جواباً. «جوناس؟» نادت مرة أخرى، وهي لا تقدر على إخفاء الذعر في صوتها، الذي تردد صداه في الفراغ.

«أنا وراءك تماماً.» قال بصوت عميق. فتوقفت واستدارت إلى الخلف، مما كاد يقلب القارب. لم تعلم من فوجيء أكثر. وفيما كانت تحدق في ذئب البحر ذي الفكين

الضخمين الذي اصطاده جوناس، راح هو ينظر إليها، كأنه يراها للمرة الأولى.

«تبدين جميلة.» همس بوقار.

أحست بحلقها ينسد. «أمي صنعت هذا الثوب. كانت خياطة بارعة. الميكوسوكيون مشهورون بابتكار الثياب المخططة. وهذا الثوب متقن الخطوط.»

توهجت عيناه الخضراوان. «الثوب جميل، لكنني أتحدث عن المرأة التي في الثوب. كنت أنتظر أن أراك مفرودة الشعر. إنه رائع. يجب أن تُرسمي أمام هذه الخلفية. إنني مستعد لأشتري اللوحة، وأعلقها في مكتبتي. الأميرة سوكلاتيكي أميرة الفلايدس.»

«ما زلت تتكرا!» صرخت من المفاجأة. لقد أخبرته اسمها الهندي مرة، لكنها لم تحلم أنه قد يعني له شيئاً. «من يرى هذه اللوحة سيظنك مجنوناً.» لكن كلامه جعلها ترتعش.

«مسحوراً، ربما.» قال بصوت أجش: «لكن ليس مجنوناً. ولكن كم من الناس تظنين يزورون مكتبتي؟»

لقد أثار السؤال انتباهها، لكنها لم تفكر به كثيراً. فالوقت ليس ملائماً لتتنكر لورا، التي سيكون لها الحق في العيش مع جوناس، ودخول غرفته المفضلة واستحواذ حبه...

ركزت انتباهها على السمكة. «لقد أمسكت عجوزاً. أتساءل كم مضى عليه من السنين هنا. انتظر عندما تراه جدتي.» قالت هذا، وابتسمت له ابتسامة عريضة جعلت عيناها تلمعان. بدت للحظة عداوتهما منسية.

وبشكل غير متوقع، بهتت ابتسامته وحلت مكانها

www.liilas.com

سيماء جادة. «كورتني؟ متى شاهدت جدتك آخر مرة؟»

«منذ ستة أشهر تقريباً، لماذا؟»

«هل أنتما متقاربتان؟» أجابها بسؤال آخر.

«طبعاً. فهذا من تقاليد الميكوسوكي. الكل يوقّرها ويحترمها. إنها الأم الرئيسة في العائلة وطلباتها أوامر.»

راح جوناس يفكر: «هل احتكت بالعالم الخارجي يوماً؟»

هذه الأسئلة حيرت كورتني. «إن كنت تعني هل غادرت الغلايدس فهذا لم يحصل أبداً. لكن العديد من الناس يزورونها من وقت لآخر. إن كنت قلقاً من انزعاجها من وجودك فلا داعي للقلق. عندما تعلم كيف أنقذتني من التمساح ستقول إن قدرك وضعك في اللحظة الحرجة إلى جانبي.»

بدا التفكير العميق على عينيه. «يعجبني ما أسمع عن جدتك.»

راحت كورتني تزيد من دفئها معه. «جميع أفراد العائلة سيسرون بلقائك، خصوصاً أن تلك السمكة ستشكل طعاماً لذيذاً، كما أنها ستفتح باباً للمحادثة... أخوالي وأبنائهم سيريدون أن يسمعوا كيف اصطدتها، وكذلك خالاتي وبناتهن، لكنهن سيتظاهرن بعدم الإستماع.»

«إذاً تظنين انني سأتلقى دعوة للبقاء للعشاء؟»

ابتسمت كورتني. «جدتي ستصرّ على ذلك.» حاولت أن تتصوّره في عينيّ جدتها الحكيمتين. سترى رجلاً طويلاً، قوياً وغامضاً في وسامته، إضافة إلى قدرته على الصيد عند الحاجة. صديق لحفيدتها، وفي نفس الوقت عدو محتمل، لأنه ينتمي لحضارة لم تستطع أن تفهمها.

عبرت سحابة حزن على وجه جوناس النحيل المشع ذكاءً. «الأفضل أن نسرع.»

لم تشعر الآن، وهو معها بضرورة ملحة للإستعجال، وراحت تتأمله بتردد. كان يرتدي قميصاً مربّع النقش وسروال جينز. كانت تتدلى من عنقه البرونزي آلة تصوير. لقد أعجبتها حركاته الرشيقة وهو يوضّب عدة الصيد، ويغلّف السمكة.

«هيا، يا كورتني. سأتبعك.»

نزلت هذه المرة ببطء إلى القارب وجلست فيه. كانت تجربة غريبة ومبهجة أن تسمع ضربات مجذافه وراءها، شعرت برفقة مميزة لم تعرفها مع شخص آخر، خصوصاً هنا في أعماق الغلايدس.

كانا يخفقان من سرعتهما كلما عبر أرنب أو غزال. في مستنقع كبير. نظرا بإعجاب إلى مجموعة من طيور النُحام. وكان جوناس يلتقط صوراً لكل ما يلفت انتباهه، وفجأة التقط صورة لها.

نظرت بعيداً، وقالت: «لا تضيّع الفيلم عليّ.»

«ولِمَ لا؟ لقد كان يطير فوقك مباشرة طائر البلشون الأبيض. كانت لقطة رائعة.»

تابعا التجذيف بناء على إلحاح جوناس، وتوقفا قليلاً عند مجموعة شجيرات من المانغروف الأبيض ليأكلا بعض الفاكهة المجففة، ويشربا بعض الماء من ترابهما. ثم انطلقا مجدداً. بدت المياه المعشوشبة ملجأ للسلاحف الخضراء، لأسماك القرخ والسلّور. كانت كورتني تسمع صرخات جوناس من الإعجاب أمام ما كان يشاهد.

www.liilas.com

«لقد وصلنا تقريباً.» صرخت له، كأنه كان غلاماً صغيراً. وسرحت أفكارها إلى الأولاد الذين قد ينجبهم يوماً ما.

«استنتجت نفس الشيء.» قال، وهو يجذف بالقرب منها، فقطع تركيزها: «هناك أحد قادم، يا كورتني.» وأومأ باتجاه التلة.

توقفت كورتني عن التجذيف ووقفت على قدميها. حيّت بلغة الميكوسوكي، فرد أحدهم التحية، مما دفع بعض الغزلان إلى الإختباء في أجمة الآس قرب المستنقع. فيما اقترب القارب الآخر، عرفت كورتني الرجل الذي كان يقوده. «جوناس، أعرفك على اسبياهولو أحد أبناء أخوالي.»

أومأ جوناس بتحية للرجل، الذي كان يرتدي قميصاً وسترة بلون لباس كورتني. كان شعره مليئاً، باستثناء عرف يتدلى على جبهته. أحست بعيني جوناس عليهما، وقدّرت أنه يقارن بينهما.

«لحسن الحظ أنك أتيت.» قال ابن خالها: «ماتت منذ يومين جدتنا. وهي الآن حيث تنبت أزهار الخزامى.»

صمتت كورتني لدرجة أنها لم تستطع الكلام. كل ما كان يجول في خلدها أنها أنت متأخرة. وبرغم أن عائلتها لا تظهر العواطف، لأن هذه ليست عادة ميكوسوكية، فإن كورتني تحمل في عروقها دماء عرقين مختلفين. كان والدها منفتحاً وعاطفياً دائما، ولطالما أظهر عواطفه للعلن. أخذت كورتني عنه هذه الصفة وأحست بدموعها تملأ عينيها، فانهمرت دون رادع على خديها الشاحبين.

التفتت فوراً إلى جوناس ورأت التعاطف يشع من عينيه.

«كنت تعلم عن جدتي قبل أن تلحق بي أليس كذلك؟ من أخبرك؟»

تنفس بصعوبة. «لا أحد. منذ يوم أو يومين سمعت الطبيب شارلي يقول لبوب إن جدتك لن تحيا إلى الخريف.»

«أخبرني نفس الشيء، لكنني ظننت أنني أملك الوقت الكافي لأراها.» واختنق صوتها.

«عندما سألت بوب إن كانت جدتك مريضة قال لا، لكنه أكد أن شارلي عرّاف أيضاً. فقررت أن ألحق بك لأساعدك إن كانت مريضة. أنا آسف لوفاتها، يا كورتني. أعلم كم كنت تتشوقين لزيارتها.»

استمرت الدموع تنهمر من عينيها. وأخيراً علمت الحقيقة من جوناس، في هذه الحالة لم يملك سبباً آخر لياتي سوى لتعزيتها عند الحاجة.

«ساتركك إن كنت ترغبين.» قال هذا، وقد أساء فهم صمتها.

نادته، وهو يدير قاربه الجلدي ليرحل: «لا تذهب، يا جوناس.»

أدار رأسه، وبدت عيناه مضيئتين. «أتعنين ذلك؟» راح طرفا فمه ينبضان.

مسحت دموعها بقفا يدها. «أنا سعيدة أنك هنا. ابق إلا إذا كنت مضطراً للعودة إلى رد مانغروف.»

«ماذا تظنين؟» قال بصوت جاف.

تضاربت العواطف فيها، فلم تع أن اسبياهولو كان يتكلم. كان يريد أن يعلم إن كان جوناس هو المدير الجديد. فقد وصل إليهم أن رجلاً أبيض تسلّم زمام الأمور في رد

www.liilas.com

مانفروف، فاعتذرت كونها لم تعزف عن جوناس، وتكلما لبضعة دقائق.

«هل من خطب، يا كورتني؟» قال جوناس، وهو يتاملهما: «إن كان وجودي يزعج عائلتك، فقولي لي.»

ترددت في التاكيد له على أنه مرحب به. «سمعوا عن المدير الجديد ويتساطون إن كنت هو. يقول إنه على الإسراع إن كنت إريد أن أرى جدتي، قبل هبوب عاصفة أخرى. سنلحق به إلى المرجة.»

«هل يزعجه قدومي؟»

«بالطبع لا. أنت معي. وهو يتقبل هذا.»

توجه ثلاثتهم إلى تجمع أكواخ الشيكي في المدى، كان يقودهما اسيباهولو، وهما يجذفان خلفه. حاولت أن تتخيل هذا الظرف بدون وجود جوناس المؤاسي فلم تفلح. أخافتها شدة حاجتها إليه. فلم يعد يهمها في تلك اللحظة أن يكون مصدراً لكثير من الألم.

كانت عائلة جدتها تقطن في هضبة متوسطة الحجم، مليئة بالنباتات المورقة، وأشجار النخيل الخشبية، التي يعيش فيها خمسة عشر شخصاً طوال العام، ويغامرون في مناسبات قليلة بالخروج إلى أطراف الحضارة. ولم يبقى منهم الآن إلا أربعة عشر شخصاً.

بدا كل شيء غير حقيقي وهم يقتربون من الشاطيء، ثم خرجوا من قواربهم. وقال اسيباهولو إنه سيتقاسم الشيكي خاصته مع شخص آخر، ليتسنى لجوناس وكورتني مكاناً ينامان فيه. يبدو أن روزا أخبرت اسيباهولو أن جوناس هو الرجل المميز في حياة

كورتني، فاعتبره أمراً بديهياً أن ترغب في أن تكون معه.

بدا المكان مهجوراً، وسرعان مع عُرف السبب، إذ عبرا بالقرب من عدة حدائق، وشجيرات عليق إلى منطقة بعيدة يكثر فيها الخزامى، وكانت جدتها تعشق هذا المكان كثيراً.

كان أفراد العائلة يرتدون ثياباً مثل كورتني. وكانوا قد تجمعوا، كما كانت تقتضي العادة، للإشتراك في مراسم الجنازة. وكان الجميع يتكلمون بالعيون، بينما كانت كورتني تقترب.

كانت النار تشتعل حول الجثة، التي مددت على جذوع الأشجار المشققة تحت غطاء من القش.

التقطت كورتني غريزياً يد جوناس، وأحست بأصابعه الدافئة والقوية تطبق على أصابعها في قبضته. لقد حطما كل القواعد والأصول، فالميكوسوكيون لا يظهرون العواطف سواء كان ذلك بالإيماء أو بالحركات. لكن كورتني لم تشعر بأي علاقة حيال التمسك بجوناس.

لقد اعتادت عائلتها على تحمل الصفات البيضاء التي تحملها. تعلمت منذ زمن بعيد على تخطي الحواجز بين عالميها، وكانت تشعر بالانتماء إلى كلٍ منهما. كان الإنتقال بسيطاً لدرجة أنها لم تفكر به.

لكنها كانت أحضرت هذه المرة رجلاً أبيض معها. وبدا غريباً، أن تقف ويدها بيد رجل غريب عن الفلايدس، وهي ترقب جدتها للمرة الأخيرة. بدت العجوز كما كانت تعرفها كورتني في طفولتها. كانت أقصر من كورتني، لكنها كانت سمينة كسائر نساء الميكوسوكي، وقد حافظت على شعرها الطويل، الذي تحول إلى أبيض كريش البلشون. بدا عظم

www.liilas.com

وجهها أكثر تعبيراً من ذي قبل، لكنه أتشح بمسحة سلام.

تركت يد جوناس لتجمع بعض الأزهار، وتضعها في يدي جدتها. ونظرت إلى وجهها المألوف وقد ارتخت خطوطه، فلمحت فيه بعض معالم أمها. لقد أعاد فقدان جدتها الحزن الذي عرفته عند وفاة أمها. أمها ثم جدتها... هل ستتحمل كل هذا؟

أرادت أن تلثم حاجب جدتها، لكنها أدركت أن ذلك سيشكل إهانة للعائلة، في هذه المناسبة المقدسة. فلا بد أن جوناس شعر بصراعها لأنه حمل يدها مرة أخرى، وشد عليها. نظرت إليه بعجز، ورأت في عينيه الخضراوين الجميلتين دموعاً، كأنه كان يعلم ما في قلبها. أثّرت فيها هذه الدقائق تأثيراً عميقاً. سيبقى الباقون حول الجثة إلى أن تقوى الرياح، لكن كورتني كانت ستمضي لتفجر في عزلة حزنها، لحق بها جوناس، ثم ترافقا عبر الهضبة وجذوع الأشجار تحميهما من الريح.

«إن تودي أن تكوني في عزلة فإنني أتفهم ذلك.»

«لا.» همست. «أريدك انت.»

الفصل الخامس

أطلق جوناس صوتاً كأنين هادئ. ثم أرخى يدها وضمها بذراعيه القويتين. حرك هذا شيئاً في داخلها. دفنت وجهها في صدره، وراحت تبكي. فهزّها إلى الأمام وإلى الوراء، وتركها تبكي ترويحاً عن حزنها.

راحت يداه تلمسان شعرها عند صدغيها، وقال: «لقد تلقيتِ خلال الأربع والعشرين ساعة المنصرمة صدمات عديدة.» وقبّل رموشها بتؤدة، مما أثار فيها المزيد من العواطف، فبكت لوقت طويل، وهي تضغط جسدها على جسده كما كانا يفعلان في السابق.

«لقد، لقد تبلل قميصك.» تحكمت بدموعها عندما عادت إلى رشدها، وابتعدت عنه. لكن جوناس لم يدعها تبتعد عنه كلياً، وقال:

«أصبحت القمصان المبللة مشكلة دائمة عندي.»

أوقفت العذوبة في عينيه تنفسها لوهلة. لم تعلم أن رجلاً مثله يمكن أن يكون على هذا النحو، إذا استثنينا أن جوناس كان يتمتع برجولة طاغية.

حدّقت عيناها البنيتان المغرقتان بالدموع بعينيه من خلال رموشها السوداء المبللة. «شكراً لأنك هنا. شكراً لإنقاذك إياي أمس. لن أنسى ذلك أبداً.»

ومضت عيناه. «كانك على وشك أن تودعيني. ظننتك تريدين بقائي.» تمتم بصوت معذّب. ونسيت

www.liilas.com

كورتني في تلك اللحظة لم جعل حياتها تنهار، استخدمت كل قواها للسيطرة على نفسها حتى تتمكن بها من الافلات من ذراعيه. فتركها قائلاً: «سيحل الظلام قريباً. فالأفضل أن نأتي بأغراضنا إلى كوخ أسيبياهولو قرب أشجار الصنوبرلياسة.»

لم يضف جوناس شيئاً، لكنه لحق بها إلى الضفة. وبعد وقت قصير، كانا قد انتهيا من ترتيب كل شيء كما في الليلة السابقة. ولما رجع أفراد العائلة، كان جوناس قد فرش القماش المشمّع على الكوخ.

أراحته كورتني من السمكة. «سآخذها إلى كوخ الطهي وأساعد في تحضير العشاء. يمكنك أن تتجول في كل أرجاء الهضبة. فهي ليست كبيرة ولا يمكن أن تتوه فيها، لكن عد في غضون ساعة.»

«أفضّل أن أساعدك.» قال بهدوء.

هددت الحميمة بينهما استمرارها في رباطة جاشها. «لقد قمت بواجبك باصطياد السمكة. والنسوة سيعملن الباقي.»

حك جوناس عنقه، وقال: «حسناً، بما أنه ليس لدي ما أقوم به فسأتجول. لا تختفي عني الآن.» وداعب بإصبعه ذقنها المستديرة، فذكرتها لمسته الخفيفة بأنه مضى زمن طويل على آخر إحساس لها بلمسته، وفمه على جسدها، فابتعدت مسرعة.

«بعد مسيرة خمس دقائق من وراء هذا الكوخ تصل إلى مرجة فسيحة تليها بقايا مستعمرة للكالوسا. ستجدها مثيرة لاهتمامك.»

«إنني أكيد.» أظهر لها شيئاً ما في صوته. فكم أثرت فيها لمسته! ولم تستطع إخفاء ردة فعلها.

«يحلو في الطقس الجاف القيام بالبحث عن الآثار.»

«لا عجب كونك مولودة هنا أن تتجهي في اختصاصك الجامعي إلى علم الإنسان.» صمت قليلاً. «الظاهر أنك لم تنوي إخباري، ولكن لا بأس، مبروك على المنحة.»

ومضى بعد هذه الملاحظة، تاركاً إياها ممزقة أكثر من ذي قبل. لِمَ هو رائع لهذه الدرجة؟ لا بد أنها ضعيفة إزاءه لأنها في حالة حزن. عليها أن تتنبه لهذا الضعف.

وحين رجع جوناس إلى المخيم، هطل المطر. كانت العائلة مجتمعة في كوخ الطهي الذي يحتوي على أرضية خشبية من النخيل للجلوس، وأرضية مكشوفة لإضرام النار.

إهتمت كورتني بطهي السمكة، بينما راحت خالتاها تطهيان ذرة مجروشة، وبطاطا، وبسكويتاً مصنوعاً من نبات الذامية. واحتست القهوة المطعّمة بالنعناع، والتي كانت جدّتها قد جمعتها قبلاً، مع الجميع.

كن يتكلّمن قليلاً وهن يعملن، فلم يسألن عن جوناس. إلا أنه ظهر، بينما كانت الخالة الكبرى تملأ ملعقة السوفكي الكبيرة بجرش الذرة، وتديرها على الجميع ليأكلوا بدءاً بالرجال.

وكانت عينا جوناس تبحثان في الضوء المنبعث من النار عن كورتني. وبإيماءة منها، علم أن بإمكانه الجلوس قربها. «لست مضطراً لأن تتناول من ملعقة السوفكي، فذلك لن يسيء اليهم.» قالت له عندما وصلت الملعقة الكبيرة إليه.

«إنني أعتبر ذلك شرفاً عظيماً، ياكورتني. أخذ الملعقة من أسيياهولو، وأكل منها كما رأى الآخرين يفعلون. ثم مررها إلى كورتني، وأرسل إليها نظرة تنم عن سروره بما فعل.

كادت تنسى أن تأكل لأنها تأثرت باحترامه تقاليد عائلتها. وكان لا بد لها أخيراً، أن تذعن. إنه كان صادقاً في اهتمامه واحترامه للقبيلة. واستطاعت أن تتفهم تقدير كبار القبيلة له، لأن تصرفاته لم تكن تمثيلاً.

وبعد دور ملعقة السوشكي، جاء دور السمكة. «إنها لذيذة.» قال جوناس: «ماذا فعلت بها؟»

«شويتها مع الحامض.»

«أهذه طريقة ميكوسوكية؟»

«لا.» ضحكت بلطف. «إنها طريقتي، طريقة الميكوسوكي تجعلها غير ذات مذاق فلا تعجبني.»

«حسن، إن لا أحد يفهم ماذا نقول.»

«اسيياهولو يفهم ما يكفي لتبادل الحديث مع الناس الذين يؤمون مانفروف. يريد أن يعرف كيف توفقت في اصطياد سمكة كبيرة كهذه.»

وضع جوناس قهوته جانباً، ونظر عبر الدائرة إلى ابن خال كورتني، وقال: «إستعملت صنارة ومفرقعة صغيرة، وألقيتهما بين الأعشاب المسننة التي كان ذئب البحر فيها.» وعندما انتهى، ترجمت كورتني كلماته الصعبة.

إبتسم أسيياهولو وهو الذي قلّما رأته يبتسم، ووجه كلامه بالميكوسوكية إليها. تبادلا الحديث بعض دقائق، بينما كان الباقون ينظرون أمامهم مباشرة.

«يريدك أسيياهولو أن تقومي غداً بذلك أمامه عندما

يرافقك إلى البحيرة الصغيرة في طريق عودتك إلى رد مانغروف.»

صمت جوناس لدقيقة، ثم قال: «أهذه طريقتك في إطلاعي أنه عليّ أن أغادر غداً، صباحاً؟» نظر إليها نظرة مدققة فأحست أنها أغضبته، مما جعل قلبها يطرق من الصدمة التي أحدثها تبدل مزاجه بسرعة.

«إفترضت أنك مغادر. فما أعرفه عن وظيفة المدير أنه يكون منشغلاً دائماً. ولا بد عند الصباح أن تكون العاصفة قد انجلت فتصل عند العشاء.»

لمعت عيناه. «قولي لابن خالك إن هذا شرف لي، لكن بالمقابل أريده أن يعلمني صيد سمك الفرخ.» كانت كلماته ودية، لكن تصرفاته كانت متحفّظة طوال مدة الطعام، الذي انتهى بتحلية من الأعناب البرية.

خرج الرجال وراحت النسوة ينظّفن المطبخ. وعندما أنهت كورتني حصتها في العمل، ذهبت إلى جوناس، الذي كان لا يزال يجلس مع الرجال. وقالت: «يمكنك أن تذهب إلى الكوخ متى شئت. سأساعد إبنة خالي، سوليكا، على تنويم طفلها ولا أعلم كم سأتأخر.»

«لا تظني أنني ساكون نائماً عندما تعودين.»

أحست بالسخونة تجتاح وجهها. لم تدر بما ترد على هذا الكلام الفج، فاسرعت إلى كوخ إبنة خالها من دون أن تنبس ببنت شفة. وأسرعت إلى الطفل، الذي كان يتأرجح في أرجوحته الصغيرة قرب أمه. وفي خلال ساعة، كانت تحمل الطفل وتغني له، وتتبادل مع والدته من وقت لآخر بعض الكلمات المتقطعة.

www.liilas.com

عندما عادت كورتني إلى كوخهما، كانت كل نيران المخيم قد أخمدت، وران الهدوء في الأكواخ. في الغلايدس إن الليل مخصص للنوم، لا سيما في أثناء العواصف التي لا تترك بقعة أرض جافة. وجه جوناس عليها ضوء مصباحه الكهربائي عليها وهي تدخل الشيكي باكبر قدر ممكن من الهدوء.

«هل أنت بخير؟» سألها جوناس بصوت خفيض، ثم أطفأ المصباح.

«نعم.» فبدل أن ترتدي قميص نوم، قررت أن تنام بثوبها. ولأنها كانت ترتدي كل ملابسها، شعرت بجوار جوناس أنها بأمان، وبعد أن زحفت في كيس نومها، وضعت الناموسية على الجزء الأعلى من جسدها وضغطت على نفسها كي تنام.

«لا بد أن أقاربك حزينون، لكنهم لا يظهرون ذلك في تعابيرهم الهادئة.» قال همساً.

تنهدت. «هذه طريقتهم.»

«إذا أردت أن تبكي، فلدي كتف رحبة.»

«شكراً. لكنني ذرفت كل دموعي. لقد أحببت جدتي وسأفتقدها، لكنها أمضت حياةً مترعة. المأساة في ذلك تكمن في تاريخها وذكرياتها التي ماتت معها. كان يجدر بي أن آتي قبل الآن.»

سمعت جوناس يتقلب في كيسه... لا بد أنه ينظر إلى ظهرها الآن. فأحست بدفئه وصلّت كي لا يقترب منها أكثر. «لم تكوني تعلمين أن ساعتها أزفت. وأتصور أن عائلتك ستخبرك كثيراً من القصص عنها، أو تكرر بعض ما سمعته منها.»

«هذا صحيح.» همست. ما قاله كان منطقياً، لكن عواطفها كانت متأججة مما منعها من التركيز. «أقدّر ما تقوله. فأنت رجل حساس. وأعلم أنهم لا يبدون لك كم يكنون تجاهك من محبة. لا تعلم كم يبدو هذا عظيماً.»

تحرك في كيسه. «أتعنين أنك لم تخبريهم عني؟ لقد فاجأتني.»

عادا فجأة إلى أرض الرمال المتحركة. وعاد قلبها يدق بشدة. «أنت المدير الجديد... سيقيّمونك بناءاً على أعمالك. إسمع، يا جوناس. لقد أنقذت حياتي وكنت لطيفاً في هذه الرحلة معي. فدعنا لا نتورط في جدال. الآن، عائلتي تتقبلك كصديق لي.»

إنفجر ضاحكاً بغضب. «هل يعلمون الآن أنك تشبهين التمساح الذي هاجمك بالأمس؟»

«لا أمزح معك، يا جوناس.» أجابت بهدوء.

«لا يهمني هذا!» قال بغضب. جزعت كورتني من عدوانيته. وتقلبت في كيسها وهي تحاول النهوض، لكن يده أمسكت كتفها بقوة. «إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟» واسند نفسه على مرفقه فأصبحا وجهاً لوجه.

«الأفضل أن أنام في كوخ سوليكا.» وحاولت الافلات من قبضته.

«لا، هذا لن يكون!» والتقط كاحلها وجذبها بقوة، ففقدت توازنها، ووقعت في حضنه. وقبل أن تتمكن من الإعتدال في وضعيّتها، أطبقت يداه على رأسها، فلم تقدر على إبداء أي حراك.

www.liilas.com

«كيف تجرؤ؟» وراحت تدفع صدره بيديها، لكنه كان يأسرها بذراعيه ورجليه القوية.

«علام أجرؤ؟» همس بلهجة. «على وضع يدي رجل أبيض عليك فاندس المرأة المقدسة؟ سافعل أكثر من هذا!»

وجد فمه في الظلام الدامس يطبق بقوة على وجهها. فراحت تلهث أمام عنف عواطفه. إفترس وجهها بوحشية بحتة محطماً كل القيود. لم تستطع مقاومته. ومهما كانت تحاول أن تستدير، كان يمسكها بين يديه أسيرة، ويستمر في تقبيلها كأنه كان مصمماً على أن يسلل منها أنفاسها.

«لا، يا جوناس!» أخذت ترجوه عندما أطلق فمه أخيراً، فمها لينطلق على وجهها وعنقها، وطبع قبلاً حارة على جسدها المعطر. أحست بموجات المدمة تعتري جسدها.

«لقد لعبت معي، والآن جاء دوري، ألا تظنين؟» وبحركة سريعة جذبها بقوة، فصار نصف جسدها فوقه ويداها مكبلتين في ضمته القوية. وأخذ يلثمها دون رحمة أو إمهال، وذلك بسحر أفقدها كل دفاعاتها. فبعد دقائق، لن تتذكر أي شيء حولها أمام اندفاع رغباته.

«أرجوك...» صرخت، تريد أن تتنفس.

«ما الأمر، يا كورتني؟ هل تقاومينني أم تقاومين نفسك؟ أليس هذا ما تريدين؟» همس وفمه على جسدها. «إقنعيني أنك لا تتشوقين لهذا.»

خوفاً من أن يشعر أنها تضعف، استخدمت كل قواها لتكسر طوقه. فوقفت وأسرعت خارجة من الكوخ، وهي خائفة من أن تستسلم لرغبته في استدراجها.

«كورتني؟» صرخ جوناس بصوت مسعور، لكنها

تجاهلته. لقد أمسكها في لحظة ضعف، وكان أملها الوحيد أن تبقى بعيدة عنه ولا تضع نفسها في هذا الوضع المستحيل ثانية.

وكانت رحلتها القصيرة إلى الكوخ قد بللها المطر فيها تماماً، استعارت فستان نوم من فساتين سوليكا. ففي الصباح ترتدي أي شيء آخر ريثما يجف ثوبها. عندما استلقت ووضعت الناموسية بدأ الطفل يبكي، فراحت كورتني تؤرجحه حتى نام من جديد. تمنت من كل قلبها أن تكون مكانه، فما من أفكار أو أحلام معذبة تؤرقه. تقوقعت على نفسها وتمنت أن يزول حزنها. كان جسدها يرتعش من الأحاسيس التي أحياها فيها جوناس. كيف ستواجهه في الصباح وتدعي أن ما من شيء قد حدث؟

عندما استيقظت كورتني صبيحة اليوم التالي كان المطر قد توقف، وكانت العصافير تملأ الهضبة بتغريدها. فجلست على الفراش وتلقت من ابنة خالها نظرة تعجب. لا بد أن سوليكا تتساءل عن سبب قدوم كورتني خلال الليل، لكنها لم تسأل. ابتسمت وتابعت إرضاع طفلها.

أحست كورتني بحسد يتملكها لرؤية الأم والطفل في هذا الهدوء والسرور. يبدو أن حياة كورتني ستبقى لمدة طويلة في دوامة. والأسوأ من ذلك أنه كان عليها أن تواجه الرجل الذي تسبب بذلك.

ارتدت بعد حديث قصير مع سوليكا أحد أثواب قريبتها وغادرت الكوخ. ولما شاهدت وعاء الجرش على النار أدركت أنها أفرطت في النوم. هل تناول جوناس الفطور مع

www.liilas.com

الآخرين أم أنه أعد شيئاً لنفسه؟. تمنت أن يكون قد أمضى ليلة صعبة بعد أن غادرته، لكنها لاحظت بعد قليل أن قاربه الجلدي اختفى. بحثت بعينيها عن أسبياهولو، لكنه كان هو قد توارى أيضاً.

كان مفترضاً أن تشعر بالراحة، لكنها أحست بالوحدة والفراغ يستحكمان بها. قمضت إلى كوخهما. كانت كل آثار جوناس اختفت. لم تعلم إلى أين تتوجه. فرأت عندها قصاصة ورق قرب الفرن فتعرفت فوراً على خطه الرجولي العريض.

«ظننت يا كورتني... أنه من الأفضل أن أغادر في الصباح فور توقف المطر. تأكدي أن يرافقك أحدهم إلى رد مانغروف، عندما تريدين المغادرة. وتأكدي أنك لن تلاقي مني ما يزعجك مرة أخرى. جوناس.»

إنحبست دموعها في عينيها. وكانت تعلم أن مغادرته هي لخير الجميع... ولا بد أن هذا هو رأي جوناس... لكن كلماته آلمتها بشدة.

لم تتمالك من أن ترتجف عندما تذكرت التمساح. هل سيلاقيه جوناس في طريق العودة؟ سيرافقه على الأقل أسبياهولو إلى البحيرة. كما تمنت أن يدله قريبها على علامات الطريق ليستطيع العودة. كانت تريد أن ترسم له خريطة، لكن الأوان كان قد فات.

تمشت إلى نهاية المخيّم ونظرت باتجاه ردمانغروف، وصلّت لجوناس كي يصل سالماً. ومع كل مشكلاتهما لم

تغير الحقيقة كون كورتني تهواه دون أمل. وبرغم قرارها بعدم رؤيته ثانية، لم تعلم كيف ستعيش حياتها الشهر القادم دون أن تعلم عنه شيئاً.

لم يعد أسبياهولو حتى بعد ظهر ذلك اليوم. كانت كورتني قد أغرقت نفسها في العمل مع أهل المخيّم لتملأ فراغ ساعاتها، لكنها أسرعت بقلب خافق إلى الشاطىء حالما رأت القارب يقترب، رفع ابن خالها صيده من سمك الفرخ عالياً وابتسم لها. فأحست بارتياح مفاجىء، لكنها كانت بحاجة لتعرف المزيد. راحت تطرح الكثير من الأسئلة.

بدا لها أن جوناس أعطى أسبياهولو صنارته هدية. وبالمقابل، أوصله قريبها إلى ما بعد البحيرة. صلّت كورتني شاكرة برغم معرفتها أن جوناس لا خوف عليه.

شكرت أسبياهولو وأخذت السمك منه. وفي طريقها إلى كوخ الطهي، راحت تتخيل جوناس يجذف قاربه الجلدي عبر الغلايدس. نظرت إلى ساعتها. لا بد أن جوناس وصل إلى ردمانغروف منذ وقت طويل.

لم تنفك أفكارها، خلال ما تبقى من اليوم وظلال الليل، تحوم حول جوناس... وكانت أفكار مضطربة. باستثناء ما فعله الليلة الماضية، فقد برهن أنه كان رجلاً حنوناً، وحساساً وذا صفات تثير أعجابها. شجاعة وكرم ولحترام لعائلتها... نوعاً ما لم تتمكن هذه الصفات من أن تضيف شيئاً للرجل الذي أزعجتها تصرفاته.

لم يعد أي شيء منطقياً. فقد جعلتها أحاسيسها المتناقضة تائهة وخائفة. أملت أن تتمكن من السيطرة

www.liilas.com

على نفسها عندما تعود إلى المحمية، ويبدو الآن، أن شهراً دون رؤيته هو بمثابة دهر.

بعد خمسة أسابيع عكّر صوت الطوّافة المألوف فوق المخيم تغاريد العصافير. وجعل ذلك الصوت كورتني تهرع من كيس نومها لتنضم إلى سائر أفراد العائلة.

إن طوّافة في الأنرغلايدس يعتبر أمراً غير مألوف، وتساءلت كم من مرة رأى أقرباؤها طوّافة. كانت تحمل شارة مرشدات أميركا وعرفت للتو أنه كان جوناس.

طرق قلبها بشدّة فظنت أن هناك مشكلة فيه، وراحت تخلع قميص نومها وترتدي ثوبها. اتجهت الطوّافة إلى الحقل المكشوف وكانت بعد ثوان تهبط.

أسرعت وهي يائسة إلى كوخ سوليكا طلباً للمساعدة. لم تستطع أن تبكل أزرارها بسبب الضمادات، التي كانت تضمد يديها، اللتين قبل أسبوع كانتا قد احترقتا في حادثة بسيطة. وكانت تتخيل منظر شعرها. فقد أمضت ليلة أخرى تتقلب في كيسها بسبب حروق يديها. ففي الأسبوع المنصرم كاد الألم يثير جنونها. وبرغم المعالجة التقليدية بالأعشاب، كان الشفاء بطيئاً. وكان الألم قد اضطرها للبقاء في الهضبة أكثر مما كانت تنوي.

أخبرت الجميع أنها تظن أن جوناس، هو الذي كان يطوف في الطوّافة، وذلك كي لا يتوتروا، ثم أسرعت وراء الكوخ لملاقاته. فلا بد أنه جاء لسبب طارئ. أو ربما قالت روزا شيئاً أقلقه...

كانت كورتني عابسة فيما راحت الأفكار المزعجة تنتابها. ربما كان والدها مجروحاً أو مريضاً. منحها

الخوف قوة لتزيد في سرعتها في الممر القديم. وفجأة شاهدت جوناس أمامها، فلم تستطع أن تتوقف في الوقت المناسب، فاصطدمت به. مد ذراعاه القويتان يمسك عضديها في محاولة منه لتثبيتها، لكن المفاجأة جعلتها تصرخ من الألم.

لمح، وهو يتمتم صلاة، أن يديها كانتا مضمدتين بقماش ميكوسوكي.

«إذاً، هذا ما أعاقك هذه المدة. لقد شاهدت كوابيس عنك مع تلك التمساح. فاردت المجيء لأرى إن كنت بخير.» ثم أخذ يدقق في وجهها، ويدرس تفاصيله كأنه لم يصدق أنها حقيقة أمامه.

لم تعرف كورتني سبب شعورها بالدوار والضعف. هل هو الألم أم الفرح لرؤيته مجدداً؟

فقد بدا أنحف. وبدت الظلال تحت عينيه، كأنه لم ينم هو أيضاً لمدة. وكان شعره الأسود قد تدلى فوق جبينه وعنقه وكان بادياً أنه لم يقصه منذ مدة طويلة. وكان الأكثر بروزاً شحوب جلده البرونزي.

أنزل يديه ببطء على ذراعيها، وأمسك برسغيها ورفعهما لينظر إلى يديها. «ما الذي حصل؟» كلما كان متوتراً كان يبدو على جبينه نبض ينبض، وكان في تلك الأثناء ينبض. وحاولت كورتني ألا تنظر. سألها سؤالاً، لكنها لم تكن قادرة على التفكير وهو قريب جداً ويمسك بها.

«لقد قمت بعمل أحمق. مضى علي وقت طويل لم آت إلى هنا، فنسيت بعض الأشياء.»

«مثل ماذا؟» بدا مصرّاً دون أن يتركها.

www.liilas.com

«طلب منّي صديق من دائرة علم النبات في الجامعة أن أجمع له عيّنات من النباتات، عندما آتي إلى هنا. كنت حضرت القارب وكل الأغراض للعودة إلى ردمانغروف فتذكرت طلبه. أخرت نفسي يوماً لأحضر له ما أراد وجئت بمساعدة عائلتي. ثم لاحظت فجأة أن يديّ كانتا مقرّحتين ومسوّدتين من لمسة نبات سام. سال لعاء على كفّيّ فاحرقهما.» ارتجفت وهو يلمسها بإبهاميه، يرسمان دوائر على جسدها الدافيء.

«يجب أن يراك طبيب.» تمتم.

إبتعدت عنه إذ لم تعد قادرة على أن تتحمل لمساته لثانية إضافية، مما جعله يرخي من أمساكه بها. «وضع أقرباني نباتات خاصة على القروح. إنها أفضل اليوم.»

«هل أحضرت مهدئات معك؟» سألها، وعيناه على الظلال تحت عينيها.

«لا.» هزت رأسها ونظرت إلى البعيد: «لا أحب تأثيرها عليّ.»

قطّب جبينه. «منذ متى وأنت هكذا؟»

«منذ أسبوع، لكن الألم لم يعد كما كان.»

أغمض عينيه. «سآخذك معي الآن. جيل ترافيس، وهو طيار تابع لمكتب شؤون الهنود، طار بي إلى هنا. أخبرينا ماذا تحتاجين وسنساعدك في التحميل.»

جعل خفقان قلبها التنفس صعباً. ومرة أخرى جاء لإنقاذها. وبرغم تقديسها للوقت الذي تمضيه مع عائلتها، كان لا بد من الاقرار بأن العودة إلى ردمانغروف، وإلى بيتها ستكون مفيدة. ولا بد من مرور أسبوع آخر لتتمكن من

الامساك بالمجذاف. لكنها تخاف أن تبقى مع جوناس كي لا يلاحظ كم كان يعني لها.

«أكره أن أخذلك. وقد علمت الآن أن كل شيء هو على ما يرام، فلا حاجة لمساعدتك. سأكون بخير في...»

«عُينت جلسة لمحاكمة تومي بعد أيام قليلة،» قاطعها. «قال إنه لن يحضر ما لم تأتي. ففي هذه الظروف، إن حضورك ضروري. قد أستخدمك كشاهد.»

لقد نسيت أمر تومي. طبعاً لن تخذله. لكن فور انتهاء الجلسة، ستحضر لزيارة والدها، كما خططت. ولن تبقى في المحمية كي تلتقي بجوناس دائماً. لحسن الحظ لن يكونا وحدهما في رحلة العودة إلى ردمانغروف.

«حسناً.» قالت بصوت خفيض، دون أن تنظر في عينيه.

«ساخبر العائلة.» كان التوتر بينهما واضحاً. أراد جوناس أن يقول شيئاً، لكنه غيّر رأيه ومضى غاضباً إلى الطوّافة.

مضت الساعة التالية بضبابية. فتولّى جوناس الأمور مع الطيّار فيما راحت كورتني تودّع أقرباءها. كانت تعي أنه سيمر وقت طويل، ربما سنة، قبل أن تعود إليهم. وافق أسيباهولو على إعادة قاربها إلى المدينة، في أول رحلة له إلى هناك.

«وأين نضع هذه؟» استدارت كورتني لدى سماعها صوت جوناس. شاهدت عدة صناديق من المؤن أحضرها معه. هناك صناديق من البرتقال، والعنب، والقهوة، والحليب المجفف، والملح، والسكّر، والحلوى، وكل ما قد يطلبه أناس يعيشون في عزلة عن الحضارة. أثار اهتمامه فضول العائلة وسيطر على كورتني تماماً.

www.liilas.com

تمتمت: «أظن أن كوخ الطهي سيفي بالغرض.» تجمع الكل عندما نادتهم ليروا هدية الشكر التي قدمها جوناس.

شاهدت عند تلك اللحظة ما لم تشاهده قط من قبل. كان الجميع يبتسمون له، فيما راحت سوليكا تشكره بالنيابة عنهم.

رد جوناس بابتسامة كاملة، وعريضة. لم تر كورتني مثلها على وجهه منذ أمد طويل، لدرجة أنها كادت تنسى كم تشعرها هذه الابتسامة بالحب والامتياز. واضطرت لتنحية وجهها.

وبعد دقائق ساعدها جوناس في الصعود إلى الطوّافة. وعندما أدارت وجهها ولوّحت بيدها، شاهدت أربعة عشر شخصاً يتنازلون الحلوى، وهي صورة ستبقى في ذاكرتها لفترة طويلة.

ربطها جوناس إلى المقعد الخلفي، فيما كان الطيار يشغّل الطوّافة، وارتفع أزيز المراوح فوق رؤوسهم، وبعد ثوان حلقوا في الأجواء. أحست كورتني باسى مفاجىء يجتاحها، فيما كانت صورة عائلتها تختفي عن ناظريها.

«هل أنت بخير؟» نظر جوناس إليها من فوق كتفه، وراحت عيناه الخضراوان تتأملان كل تفاصيل وجهها، الذي بللته الدموع. «ستزورينهم مجدداً يوماً ما.» لكن محاولته لتهدئتها، جعلت دموعها تُذرف أكثر فأكثر.

«لا أبكي لهذا السبب.»

التقى حاجباه الأسودان. «قلت لي إن الألم في يديك قد بدأ يزول.»

هزت رأسها في إحباط. «إنني أبكي لأنك سببت الفرح للعائلة. فلن تُنسى طيبتك. شكراً لما فعلت.»

لم يبد على وجهه أي تعبير. «كنت أحاول بكل بساطة أن أرد لهم ضيافتهم، وكرمهم مع شخص غريب، فلا حاجة للشكر.»

نظرت كورتني من الشباك، وهي تأمل أن يكون الطيار مشغولاً بما يقوم به، فلا يسمع حديثهما. وتابعا الرحلة بصمت. بدت الأمور وكأنها عادت إلى ما كانت عليه، نيلة زارها في كوخها في رد مانغروف. أحست في قلبها بجرح يأبى الإندمال.

حاولت أن تركز تفكيرها على الرحلة. الإنتقال في الطوّافة مختلف عن الإنتقال في طائرة تجارية كبيرة، لكنها كانت تستمتع برؤية الفلايدس عن قرب.

كانت غارقة في التفكير، فلم تنتبه إلى أن الطوّافة كانت تتوجه إلى شاطىء ميهامي، إلى أن لمحت الأفق عن يمينها فصاحت بذعر. «إلى أين نحن ذاهبون؟»

«إلى أين برأيك!» قال جوناس، وهو ينظر إليها من فوق كتفه.

«لا يمكننا الهبوط في مطار وأنا بهذا المنظر! كنت أظن أنك تأخذني إلى المحمية.» بعد العزلة الطويلة وهدوء الفلايدس، لم تكن مستعدة لمواجهة ضجيج الناس. لم تكن لتتحمل نظرات الناس إلى شعرها المنثور وغير المسرّح، وإلى ثوبها المخطط الزاهي الألوان.

«كفى، يا كورتني. أنت جميلة مهما كنت ترتدين، ومهما كان منظر شعرك منتثراً. لكن، إن كنت متضايقة فهناك

سيارة ليموزين في انتظارنا في المطار، وستقلنا إلى بيتي. ستساعدك دليا في الاستحمام، وارتداء غير هذا الثوب، وسآخذ موعداً مع أحد الأطباء.»

كانت تريد أن تطلب منه أن يعيدها إلى المحمية فوراً، لكن مع وجود الطيار جيل ترافيس أبت أن تفتح باباً للجدل. خرج جوناس كالعادة منتصراً. وبدا يستمتع بذلك من خلال وجهه المشع بالارتياح.

لم تود كورتني أن تكون مدينة له بأكثر مما فعل. فلما هو يهتم هكذا؟ هل هناك دافع خفي وراء إظهاره الطيبة... غير طلبه للمساعدة في المحكمة؟

وبعد دقائق كان جيل قد هبط بالطوّافة. وكما قال جوناس، كانت هنالك سيارة مرسيدس سوداء أنيقة بزجاج أسود تنتظرهم على بعد عدة ياردات لتقلهم إلى بيته.

كان جوناس يساعد كورتني وذلك قبل أن تتوقف المراوح عن الدوران. «ماذا تحتاجين للأيام المقبلة؟ سيأخذ جيل ما تبقى من المتاع غير الضرورية إلى المحمية. لقد كلمت روزا، التي قالت إنها تملك مفتاح بيتك وستهتم بالمتاع.»

كانت تعلم أن جوناس رجل يخطط للبعيد في الحالات الطارئة. عندما يتولى المسؤولية لا يبقى شيء غير منظّم. كانت تشعر بالسعادة لوجود من يهتم بها. وكانت متعبة من قلة النوم، وكانت تشعر بعواطف مضطربة بسبب رؤية جوناس من جديد. لذا لم تعارض مخططاته.

قفز من الفتحة، ووقف مادّاً ذراعيه ليتلقاها، وأمسكها من خصرها، ثم أنزلها ببطء إلى الأرض. أحست بدفء يديه

من خلال قماشة ثوبها الرقيق فارتعشت من اللمسة الخفيفة.

«الحقيبة الكبيرة هي كل ما أحتاج له.» كانت تحتوي بعض الغيارات ومساحيق الزينة. تركها جوناس قليلاً لتحضر أغراضها. فأحست أنها فقدت شيئاً هاماً إذ أبعد يديه. إن البعد عنه لخمسة أسابيع جعلها تتوق للمساته. هل سيأتي يوم لا تتأثر فيه بقربه؟ متى لا تعود وتشعر بشيء وهي بقربه؟

أخبرها في القصاصة التي تركها في الكوخ، أنه لا داعي لأن تخاف منه بعد الآن، وقد عنى ذلك. ربما في أثناء وجودها لدى عائلة جدتها، أعلن خطوبته رسمياً على لورا. لا بد أن العرس بات قريباً. كانت معجبة به لأنه يجد وقتاً للإهتمام بتومي، وهو في خضم مشكلات إدارة المحمية، وخطوبته، وتحضيراته للإنتخابات لمنصب الحاكم. وهو يهتم لإيصال كورتني إلى قاعة المحكمة كي تؤدي ما عليها.

ربما لم يأت بالطوّافة لسبب آخر. وربما بعد انتهاء الجلسات لن يلتقيا أبداً.

كان على كورتني أن تشعر بالارتياح لهذا الأمر.

www.liilas.com

الفصل السادس

شكرت كورتني الطيّار على خدمته، فيما كان جوناس يرافقها إلى سيارته الليموزين. غرقت في المقعد المنجّد وأغمضت عينيها، مستمتعة ببرودة الداخل. جلس جوناس قربها إلى المقعد الخلفي وأعطى الأوامر للسائق. عندما استفاقت من شرودها، وجدت ان السيارة قد تخطت الحارس على مدخل جزيرة لاغورس، واقتربت من مدخل الدارة المحاطة بالاخضرار الزاهي حيث تنتصب شجرة مانغا.

أسرعت دليا، مديرة المنزل، على الدرج الأمامي ورافقت كورتني إلى غرفة الضيوف ذات اللون الخوخي، والتي كانت تستعملها كورتني في عدة مناسبات سابقة. بقي جوناس في الحديقة ليكلم البستاني مما أثار ارتياح كورتني. راحت دليا تثرثر غير شاعرة بالتوتر في الأجواء.

فكت دليا ضمادات كورتني، التي دخلت إلى الحمام لتستمتع بحمّام طويل ومنعش. حضرت لها دليا ثياباً نظيفة وعرضت أن تساعدها في تصفير شعرها.

أسباب الراحة هذه شكلت تناقضاً صارخاً مع الاخضرار المورق في الالترغلايدس. شوّش الرخام الأبيض اللامع في الأرضيات والجدران عيني كورتني. فمنزل جوناس مريح ونظيف وأنيق، مثل ذوق صاحبه. كانت سعيدة بمكيّف الهواء. برغم غرامها بالالترغلايدس، فانها لم تكن تتحمل

الرطوبة لمدة طويلة. الهواء بارد جداً كنسيم الجنة. لم يكن منعشاً فحسب، بل أنساها الألم في يديها أيضاً.

مثلما كانت تحب جمال الزي الميكوسوكي وتواضعه، كانت ترى ان الجينز والبلوزة أكثر ملاءمة. لكن العائلة كانت تتوقعها أن تلبس الزي التقليدي، وهذا ما كانت تفعله بطيبة خاطر كلما قامت بزيارتهم.

أخرجت من عدة التبرج خاصتها قارورة العطر المفضلة عندها، «فلوردو روكاي.» لم تتعطر في الغلايدس لأنه يجذب الحشرات، لكن لا داعي للقلق الآن فرشّت نفسها بحرية.

«ادخل.» قالت عندما سمعت طرقاً على باب الحمام. كان جوناس، وليس دليا.

لقد استحم وارتدى بنطالاً لونه بيج، وقميصاً أزرق بدا وكأنه يزيد من اخضرار عينيه. «تحضر دليا غداءنا، ثم نتوجه إلى العيادة. هل أنظف شعرك؟»

مجرد التفكير بيديه في شعرها أثارها، لكنه أخافها أكثر. «سأنتظر دليا.» أجابت بسرعة.

«لا وقت لدينا. علينا أن نكون عند الطبيب قبل الساعة الثانية.»

لم يكن من بد من تركه يساعدها. كان شعرها رطباً من الحمّام، وسكب جوناس عليه سائلاً له رائحة الورد. راح يدلك رأسها بلطف، فراح الشامبو يرغي، كأنه خبير بتنظيف شعر الفتيات.

عندما أحست أنها لم تعد قادرة على تحمل قربه أكثر من ذلك، تناول منشفة زهرية اللون وراح ينشف شعرها.

www.liilas.com

«كورتني، استديري.» فسمعه صوته الأجش، لكنه التقط فرشاتها، وراح يسرّح الشعر الطويل.

«شكراً، جوناس. سأطلب من دليا أن تضفره لاحقاً.» حاولت الابتعاد.

«دعيني أرى يديك.»

مدت كفيها أمامه، وأنفاسها تختنق. بدا السواد يختفي والبقع المحروقة تشفى، لكن الجروح كانت لا تزال بحاجة للعناية.

توتر فمه بقلق. «كلما أسرعنا إلى الدكتور جونز، كلما كان أفضل. هيا بنا.»

كانت دليا قد حضرت طعام الغداء في الغرفة، التي تطلّ على بركة السباحة المستطيلة في المرجة الغربية. راحت كورتني تأكل بشراهة واستمتعت بسَلَطَة الدجاج الباردة. بين قطع اللحم الأبيض المغطى بقشدة الزنجبيل أعناب وقطع من اللوز.

قدم جوناس لها حلوى البرتقال. «أنت أنهل مما كنت عليه آخر مرة رأيتك.» قال معلقاً، فيما راح يسكب لها قدحاً من الشراب الأبيض «ما السبب؟»

راحت ترشفه ببطء، متسائلةً ما سيكون رده إذا أخبرته الشيء نفسه. لكنها قالت: «لخمسة أسابيع لم نتناول هذا اللحم. لا يمكن أن تتصور كم أحب هذا الغداء.»

«يمكنني أن أتصور. في إحدى رحلات العمل إلى الصين حدث أن تأخرنا لمدة شهر فرحنا نأكل الطعام الصيني، وهو ليس بجودة لحم الغزال.»

لكن جوناس لا يتذمر. إنه رجل يواجه كل الصعاب ويجد

المتعة في ذلك. لم تلتق رجلاً مثله. ولكي تقطع هذه الأفكار، ونهضت بسرعة من على الكرسي.

«سأطلب من دليا أن تجدل شعري كي نتمكن من الذهاب.» ومن دون أن تنتظر موافقته مضت خارجة من الغرفة.

فيما راحت دليا تضفر شعرها، أخذت كورتني على نفسها عهداً بأن تلملم أطراف أطروحتها، وتمضي لزيارة أبيها في زائير، وذلك فور انتهاء المحاكمة. فرؤية جوناس حطمت الدفاع الضعيف الذي كانت تبنيه في وجه جاذبيته.

لم تطل الزيارة لعيادة طبيب عائلة جوناس. وصف لكورتني مضاداً حيوياً، ورشّ على كفيّها مخدراً موضعياً لتخفيف الألم، وقال إن العلاج بالأعشاب قد ساهم في عملية الشفاء. ثم وضع ضماداً شبكياً على أسوأ الحروق، ووصف لها دواءاً لتسكين الآلام خلال الليل.

ناقش كورتني وجوناس قضية تومي خلال طريق العودة. وتجنّبت التطرق للمواضيع الشخصيّة، كي لا تضع نفسها في حرج. عندما رُكنت السيّارة في الموقف أمام الدارة، شكرت كورتني جوناس على كل شيء، واختارت الكلمات بشكل رسمي، وجعلت لهجتها شديدة التحفظ، فيما أمسكت بقبضة الباب.

«إلى أين تمضين بهذه السرعة؟»

«إلى الفراش. سآخذ حبّة دواء، وأحاول أن أنام لأربع وعشرين ساعة.» لم تتجرأ على البقاء بقربه لمدة أطول.

حك ظاهر رقبته. وقال: «سأحضر إلى غرفتك لاحقاً. إن كنت صاحية، سأحضر لك صينية العشاء.»

كاد اهتمامه أن يبكيها. «أرجوك لا تزعج نفسك. لا أريد لوجودي أن يؤثر على عملك أكثر من ذلك.» كلما حاول الاهتمام بها، كلما ازداد توقها إليه عنفاً.

«أعتبر اهتمامي بك جزءاً من عملي.» كانت هذه ملاحظته الموجزة، قبل أن يساعدها في الخروج من السيارة. في الردهة اعتذر منها ومضى إلى مكتبه.

كان التعب يثقل العينين، وتاملته كورتني يمضي قبل أن تصعد إلى غرفتها. لم تقدر أن تفهم لِمَ يهتم بها ويساعدها. بالطبع ليس من أجل قضية تومي لكن ليس من المفروض أن تفكر في دوافعه. ولا حتى في عواطفه...

أخذ الدواء مفعوله بسرعة. نامت بين شراشف باردة، من الحرير، ولم تحس بشيء حتى استفاقت بعد منتصف الليل، وهي تحس بجوع شديد. لو أحضر لها جوناس العشاء، لما أحست بذلك. لكنها كانت جائعة، ولن تقدر أن تنام قبل أن تتناول شيئاً.

وجدت رداء وبريّاً أبيض اللون، يخص جوناس على يد إحد الكراسي. لقد تركه لها، وربما قال في نفسه إنها لم تحضر واحداً معها. لقد أحضرت قميص النوم القطني الرقيق، الذي لبسته في المخيم. كانت رائحة الصابون، الذي يستعمله عابقة في الرداء وهي ترتديه، ثم تشد زناره بإحكام على خصرها النحيل.

خرجت على رؤوس أصابعها، وهي تتمنى أن يكون الجميع نياماً. نزلت على الدرج اللولبي بسرعة، وتوجهت إلى المطبخ. كل ما كانت تحتاجه هو قطعة من الخبز المحمص مع كوب من الحليب أو العصير.

كان القمر مضيئاً فلم تحتج لإضاءة الأنوار في المطبخ، الحديث الواسع. ووجدت ما تريد بسرعة. دخل جوناس فجأة، وأشعل الضوء الذي في السقف. نظرت وعيناها تومضان. كان لا يزال في بنطاله وقميصه.

تنقلت عيناه على شعرها، المشعث من أثر النوم، وتأمل فمها. ثم نظر إلى الخبز المحمص. «يمكننا أن نحضّر أفضل من هذا.» فتح البراد وأخرج مايونيزاً، وخسّة، ولحماً مطبوخاً، وراح يقطعه ليصنع لها منه شطيرة.

«آسف لازعاجك.»

«لم تزعجني. كنت لا أزال أعمل بعض الأرقام، وجئت من أجل القهوة. كيف الألم؟»

نظرت إلى يديها كي لا يرى تأثير قربه عليها. «لو لم تذكره، لكنت نسيته.» ثم نظرت إلى الشطيرة، التي وضعها أمامها، فتناولت منها قضمة كبيرة.

«أنا سعيد لذلك.» تمتم، فيما أحضر ابريقاً من القهوة: «كنت غارقة في النوم عندما دخلت لأراك قبل قليل.» «أعطاها موزة من وعاء موضوع على الطاولة. «لا بد أنك جائعة.»

«صحيح.» أجابت، وهي تأخذ الموزة، ولكنها كانت تتجنب عينيه. قريبة منه، ولا أحد غيرهما، أحست بتوتر وبعدم ثقة في النفس.

سكب لنفسه فنجان قهوة، واتكأ على الطاولة، ونظر إليها من فوق حافة الفنجان، فيما راح يشرب. «هل ساعدتك العائلة في كتابة تاريخ الجدة؟»

أومأت، وقالت: «لقد فاجأوني في كمية المعلومات التي

www.liilas.com

قدموها. في الحقيقة، علمت أشياء عن علاقتها بجدي، وهي أمور لا أظنها كانت أفشتها.»

«مثل ماذا؟» قال بفم ملتو.

«حسناً...» والتوت شفتاها إلى أعلى: «...المرأة هي رئيسة العائلة في الحضارة الميكوسوكية لأن المجتمع أخوالي (مبني على ناحية الأم)، لكن جدي تولى المسؤولية بعض الأحيان. لم يعجبها الأمر، وفي يوم من الأيام، بعد سنوات قليلة من زواجهما، خرج ليصطاد ولم يعد. لحقت به ورجته كي يعود إلى كوخهما. لحسن الحظ أنها فعلت، وإلا لما ولدت أمي.»

التمعت عينا جوناس بسرور، وشيء آخر لم تقدر أن تفهمه. «يبدو جدك رجلاً ذكياً.»

«علمت أنك ستقول هذا الكلام،» قالت بجفاف. في فترة الصمت التالية، قشرت كورتني الموزة وأكلتها، دون أن تنظر ناحيته. تغير الجو وأحست بحذر متزايد تجاه جوناس. لم يكن هذا المكان صالحاً لحديث كهذا، وخصوصاً أن الساعة تجاوزت الواحدة والنصف صباحاً. وخصوصاً أيضاً أنها أحست بتيار خفي يثير مشاعرها ومشاعره أيضاً.

رمت القشرة في سلة المهملات. «شكراً للطعام. أظن أنني قادرة على النوم. عمت مساء.»

«لا تذهبي.» تمتم بثقل، فيما فتحت الباب. أحست بيده تطالها، وتنزلق على ظاهر رقبتها. لم تستطع الخروج.

«لقد تأخر الوقت.» همست، لا تكاد قادرة على التقاط أنفاسها.

«هل يهمك حقاً؟» كان صوته أجش، وحاثاً إياها على البقاء.

أرادت كورتني أن تقاوم، خائفة من سيطرته عليها. لكن شعورها بالرضا جرف كل رغبة في المقاومة.

«كنت أعلم،» قال كأنه يحتقر نفسه. «لكنني لا أستطيع أن أقاوم نفسي. فأنا أريدك، يا كورتني.»

«سآخذك إلى غرفتي.» وبحركة سريعة رفعها بين ذراعيه. وأطفأ الضوء وخرج إلى الردهة.

«لن تفري مني الآن.» وراح يجرها عبر الرواق المؤدي إلى جناحه. لكنها قاومت.

«هذا أنت، يا جوناس.» كان صوت امرأة من باب مجاور. «ظننت أنني سمعت شيئاً غريباً.» رؤية دليا في قميص نومها، وكريم الليل على وجهها، شتت تركيز جوناس، ففرت كورتني إلى غرفتها.

سمعت صوتيهما عبر الباب، لكنها لم تفهم ما كانا يقولان. كانت تتخيل كيف ستفسر دليا ما رأته. ما كان على كورتني، أن تنزل وإلا لما حصل ما حصل.

خلعت رداء جوناس، ودخلت سريرها، وحاولت تهدئة نفسها. كان جسدها يرتعش، وشكت أن تكون قادرة على النوم، لكنها لم تجرؤ على أخذ حبة ثانية.

حاولت يائسة أن تنسى، وأشعلت الضوء الموجود قرب السرير، وأخرجت كتاباً من حقيبتها الكبيرة، لكنها لم تجرؤ على فتحه.

بعد دقائق ظنت أنها تسمع صوتاً خارج باب غرفتها، برغم أن ذلك قد يكون من وحي خيالها. معظم الليل استلقت

www.liilas.com

على جنبها، وركبتاها مثنيتان إلى صدرها، بانتظار أن يمحو النسيان الألم. أخيراً نالت ما تمنت، ولم تستيقظ حتى الحادية عشرة من صباح اليوم التالي.

دخلت الشمس من النوافذ. يوم آخر من الحرارة، والرطوبة ولا أثر للمطر. أسرعت كورتني إلى الحمام. بعد أن لبست شورتاً نظيفاً وبلوزة، رتبت سريرها، ونزلت إلى المطبخ حيث وجدت دليا.

كانت مديرة المنزل من اللطافة... وحسن السلوك... بحيث لم تذكر حادثة الليلة السابقة. حضرت الإفطار لكورتني، وشرحت أن جوناس قد تناول افطاره، ومضى إلى المحمية. وأمر أن لا يدعوا كورتني تقوم بأي عمل، سوى الجلوس في الشمس والأكل. وترك ورقة يقول فيها إن المحكمة حددت الجلسة في اليوم التالي. توقعت دليا رجوعه عند العشاء.

حاولت كورتني أن تخفي سرورها بأنها لن ترى جوناس حتى المساء. فيما تناولت فطورها من الكعك والتفاتق، اتصلت هاتفياً بصديقتها الفضلى، ليندا، وتواعدتا على عشاء في مطعمهما المفضل. ينتهي دوام ليندا في التمريض عند الرابعة فتصبح حرة.

بعد أن أنذرت دليا بأنها لن تعود قبل المساء، اتصلت كورتني بسيارة أجرة، ونزلت إلى المدينة. توقفت عند المصرف، ثم ذهبت إلى مزين أنيق في بال هاربور، حيث يكلف قصه للشعر ثروة. لكنها كانت تريد أن تكون قصتها الأولى على يد شخص بارع.

أمضى المزين ساعة يناقش معها عدة تسريحات.

ثم خرجت في النهاية شاعرة أن وزنها أخف. بدا شعرها الناعم متدلياً إلى كتفيها، ومن جهة واحدة كان يتشعث في الهواء. بدا طبيعياً، وقال الجميع في المحل إنه يظهر جمال عينيها وخصوصيتهما، وفمها الدقيق.

التسريحة الجديدة تطلبت ثوباً جديداً، وتبرجاً مختلفاً. وأصرّت على عمل شيء ما. عندما دخلت إلى مطعم لوريجي بعد ساعات، لم تتعرف ليندا إلى المرأة الأنيقة النحيلة، التي ترتدي ثوباً صيفياً منقّشاً بالأبيض والأخضر، إضافة إلى جزمة خضراء، وأحمر شفاه مرجاني.

«ليندا؟»

«لا أصدق!» قالت صديقتها الشقراء النحيلة عندما وعت أنها كورتني. بدا التغيير تاماً. «كنت دائماً أجمل فتاة في المدرسة، لكنك الآن رائعة! أنا أغار، وأكاد أموت. ماذا حل بك؟» هامت مشكّكة.

أشاحت بناظريها. الذي حل بها هو جوناس. كانت لا تزال تشعر بيديه وجسده، فيما كان يفسل شعرها الطويل. كيف بامكانها أن تكون مجنونة كي تصدق، أنها بفضة ستدمر تلك الذكرى؟ «لم لا نطلب وجبتنا وسأروي لك قصتي.»

«هل لحق بك جوناس؟» لقد ضربت ليندا على الوتر الحساس لحظة جلوسهما. «حسناً، يا صديقتي.» بدت ليندا مصرة. «تكلمي. أريد أن أعرف كل شيء، وأعني بكلامي، كل شيء!»

ضحكت كورتني بينها وبين نفسها، ووضعت لائحة

الطعام على الطاولة. لم تكن تحتاجها حقاً. فهي تطلب دائماً الكانيلوني.

تركزت عينا ليندا الزرقاوان على كورتني. نظرت المرأتان إلى بعضهما البعض لفترة قصيرة. تكلمت ليندا أولاً.

«أنت تحبينه.»

«نعم.» همست كورتني، بصوت مرتجف.

«ستتزوجين. صحيح! وساكون اشبينتك.»

«لا.» ولم تقدر كورتني على منع دموعها.

«ما الأمر، يا كورتني؟»

«أوه، ليندا...» راحت تبكي، ولم تستطع أن تتحدث للقائق. أخيراً سيطرت على نفسها، وأخبرت ليندا بما حدث في المكتب القانوني، إضافة إلى المواجهة العنيفة بينها وبين جوناس في بيتها في المحمية.

بعد أن انتهت كورتني من سرد قصتها، نظرت إليها ليندا لمدة طويلة. «الرجل مجنون بك. أنا أكيدة. إن قال لك إن أباه ولورا كانا يكذبان، عليك أن تصدقيه. إذا استثنينا إضطراره بعض الأحيان لمناقشة بعض الأعمال مع لورا على غداء، أو عشاء عمل، هل استشفيت مرة أنه مرتبط عاطفياً بها؟»

«أبداً.» وهزت كورتني رأسها.

«إذاً؟»

«كان يجب أن تكوني هناك لما أعلن سايلاس النبأ. لما كان عندك أي شك، صدقيني.» وارتجف صوتها، وهي تتذكر الألم القديم.

«ألا تجدين الأمر غريباً، أن يكون أبوه من يعلن النبأ؟ خصوصاً وأن جوناس لم يكن هناك؟ إعلان كهذا هو حق لجوناس لا لأحد سواه. وخاصة لأبيه. ألم تخبريني عدة مرات أنه ووالده ليسا على اتفاق دائم؟»

«نعم.»

«بدأت أفهم السبب. كيف تشعرين إن وضع أبوك نفسه عليك قيّماً، وأعلن شيئاً يخصك أمام مجموعة من الناس؟ وخصوصاً إن لم يكن الحقيقة؟»

أومضت عينا كورتني، فيما كانت تسمع أسئلة ليندا: «أغضب طبعاً. لكن سايلاس يحب جوناس. لِمَ يكذب هكذا؟ قد يخسر جوناس تماماً.»

أمالت ليندا رأسها جانباً. «لا أعلم. ربما كان هذا ما يتمناه. ربما يرى أحلامه وطموحاته المكبوتة في جوناس. ربما يريد سايلاس أن يحس بنفسه هاماً. ومسيطراً كونه أباه. جوناس رجل لامع. ولحد في المليون.»

«أعلم،» قالت كورتني بهمسة متألمة.

«رجل كهذا لن يسمح لأحد أن يفرض عليه قدره أو...» صمتت لبرهة. «... يختار له زوجة. فكري بهذا.»

حملقت كورتني بطعامها دون أن تراه. «أنا أفكر. لكن لورا قالت لراي...»

«هيا، يا كورتني!» نظرت إليها ليندا نظرة العارف «لو أراد جوناس الزواج من لورا لفعل ذلك من زمن بعيد. قلت لي إنها في المؤسسة لخمس أو ست سنوات خلت.»

«هذا ما قاله سايلاس.»

تنهدت ليندا. «لو كنت مكانك لوثقت بجوناس، حينما قال:

www.liilas.com

إن الأمر ليس إلا اختلاق. هذا يفسر انقطاعه عن المؤسسة. هل ترين طريقة أخرى لمخرج جوناس نفسه من خططهما، غير أن يصبح مديراً للمحمية؟»

«حتى، حتى لو كان ما تقولين صحيحاً، وما قاله سايلاس كذب، لست مقتنعة بأن جوناس قبل الوظيفة لهذه الأسباب. قال إنه فكر مرة بالعمل في السياسة. أظن أن الفكرة لا تزال تراوده.»

انحنت ليندا إلى الأمام، ووضعت يدها على يد كورتني تسترضيها. «وهل هذا سيّء؟ لا أفهمك. ليست جريمة أن يترشح لمنصب حاكم الولاية.»

«طبعاً لا. إنما دوافع جوناس للارتباط بي تثير شكوكي.»

«كورتني...» صاحت ليندا بغضب: «لِمَ يمضي معك كل لحظات نهاره، إن لم يكن يحبك؟»

«يمكنني أن أفكر في عدة أسباب. كي يكسب أصواتاً. لقد قرر أن يخطب ود المجموعات التي تريد المحافظة على الفلايدس. مصادقته الهنود الحمر جزء من خطته. حينما رآني في المكتب، رآها فرصة ذهبية ليستولي على مصدر انفتحت أبوابه أمامه. لقد شكرني سايلاس أمام الجميع، لأنني ساعدت في تمهيد الطريق أمام جوناس بواسطة قوم أمي.»

«لا أصدق ما أسمع.» هزت ليندا رأسها. «لقد قلت لي إن القبيلة طلبت من جوناس أن يصير مديراً منذ سنة. قبل أن تتوظفي في المؤسسة. فكري!»

«لكنه لم يقبل الوظيفة إلا بعد أن راح يقابلني لمدة

شهرين، وراح يغمرني بالأسئلة، فتعلّم كل شيء عن المحمية. كان مهتماً بي، وبخلفيتي الثقافية، ولقد ظننت بغباء أنه يريد شيئاً آخر.» اضطرب صوتها.

«لا يمكنك أن تكوني أكيدة.»

«بلى.» أجابت كورتني: «لم يقترح جوناس الزواج مني. فلنكن واقعيين، يا ليندا. هل يمكنك أن تتخيليني السيدة باين، زوجة حاكم ولاية الشمس الساطعة؟ أنا أكيدة من استحالة هذا، وأنه لا يفكر به. لكنه لا يرفض علاقة جانبية. أعلم أنه يرغب بي. لم يكذب بهذا الشأن. لكن أعماله شأن آخر. لم يتوان عن استغلال القبيلة لمدعم حملته الانتخابية. عندي الأدلة على ذلك.»

جاء دور ليندا لتومض عيناها. «هل واجهت جوناس بالأمر؟»

«نعم. اعترف أنه احتفظ بجزء من تسوية العشرين مليون دولار ليستعمله في مشروع آخر.»

«لكنه لم يقل أن مشروعه هو الحملة الانتخابية؟»

«لا.»

«لِمَ لم تصرّي على الحصول على جواب واضح؟»

«لأنني لم أكن بحاجة لذلك.»

«وكيف تجزمين؟»

رطّبت شفتيها بريقها. «لا أجزم، لكن بعد ما سمعته على لسان راينور، وهو يكلم لورا، تأكدت.»

«لكننا اتفقنا على أن هنالك مؤامرة تدور من وراء ظهر جوناس في المؤسسة.»

«لم يكن راينور يعلم أنه كان بامكاني أن أسمعه. كان

www.liilas.com

يتكلم مع لورا. فيما كنت مغادرة، ولم أقصد أن أسترق السمع.»

امتد صمت طويل بينهما. «كورتني، بما أنني صديقتك المفضلة، ساخبرك شيئاً لمصلحتك، حتى لو لم تريدي السماع.»

أشاحت كورتني بعينيها، والألم في قلبها، وهي تحس بالضياع.

«أظن أنك ترتكبين خطأ جسيماً بخضوعك لتأثير الآخرين. لم لا تسألي جوناس عن الحقيقة؟ حسبما أعرفه، ليس وحشاً استغلالياً. انظري ما فعل لك. أحضرك من منطقة نائية في طوافة، وأخذك إلى الطبيب، وأحضر لعائلتك هدايا دون أن يكون مضطراً لذلك. لو وُجد في حياتي شخص كجوناس لأمسكت به بقوة تجعل رأسه يدور.»

رفعت كورتني عينيها المتألمتين لتلتقيا بعيني ليندا. «أنت تبسطين الأمور المعقدة.»

«أعلم ذلك. لكن اعذريني لصراحتي، فأنا لا أحب أن أراك حزينة.»

«لا داعي للمعذرة. كنت بحاجة لهذا الحديث.» قالت بصوت مرتجف: «منذ كنا فتاتين، وأنت كالأخت لي. وهذا أمر يعني لي الكثير.»

مسحت ليندا طرف فمها بمنديل. «في هذه الظروف أظن أنه علينا أن نخرج من هنا، ونمضي إلى السينما. هنالك فيلم كوميدي يعرض قريباً من هنا. ما رأيك؟»

بدت الفكرة جذابة، لأنها تبعد كورتني عن جوناس

لساعات أخرى. لقد زاد حديثها إلى ليندا عنه كربها بسبب هذا الوضع المستحيل.

بدت ساعتا الكوميديا الدواء الذي كانت تحتاجه كورتني. عندما أوصلتها ليندا بسيارتها إلى بيت جوناس في العاشرة من تلك الأمسية، أحست كورتني بتعب لذيذ وبتحكم قوي بعواطفها. ضمت ليندا ووعدتها أن تتصل بها بعد يومين. ثم هرعت على الدرج الأمامي، قابضة على مشترياتها، وحاولت الدخول. كان الباب مقفلاً.

عندما حاولت قرع الجرس، انفتح الباب الخشبي الثقيل. كان جوناس بثياب العمل، يبدو كملاك منتقم. كان وجهه أبيض من الغضب، وضاقت عيناه الخضراوان إلى مجرد شقين.

تحركت يد كورتني تلقائياً إلى رقبتها، بعد أن تركزت نظرته على شعرها. لم يقل شيئاً لفترة طويلة، لكن بخلاف نظرات الإعجاب، التي تلقتها من الرجال خلال السهرة، لم تر في عيني جوناس سوى الغضب.

«أظن أنه ليس عليّ أن أسأل أين كنت.» وقف جانباً كي تتمكن من الدخول، ثم أقفل الباب واسند جسمه عليه، وذراعاه البرونزيتان على صدره. سمعته يقول متمتماً بصوت أضعف من صوت أنفاسه. «لم فعلت ذلك؟»

كانت تعلم قصده، وهي تتذكر التجربة الحسّية وهو يغسل شعرها. «ولم تغير المرأة تسريحتها من وقت لآخر؟» لم تقدر أن تخبره، أنها قصت شعرها لتنتقم من اللحظة العابرة، التي فقدت فيها سيطرتها على نفسها.

www.liilas.com

«لست أيّ امرأة.» قال بحزن: «لم تعودي تشبهين الأميرة سوكلاتيكي»

عاد إلى هذا الحديث... لماذا؟ «لا يعلم الرجل ما تعانيه المرأة ذات الشعر الطويل يوماً بعد يوم.»

«ما السبب، يا كورتني؟ هل مضى القديم وأتى الجديد الذي لا أعرفه؟» صاح بها: «سترتعد أمك في قبرها لو رأتك هكذا.»

أشعلت كلماته غضبها: «لم أكن أعلم أن كوني في ضيافتك لأيام قليلة، يعني أن علي أن آخذ إذناً منك، لأحيا حياتي كما أريد.»

انتصب في وقفته، وضم يديه على شكل قبضتين على جانبيه. «لأنني كنت في منزلك ولم أنبس ببنت شفة. لن يعرفك أسيباهولو، عندما يأتي إلى رد مانفروف.» كانت نبرته الراعدة تعكس امتعاضه التام.

ارتفع ذقنها. «سأكون في أوكلاهوما قبل أن يأتي في زيارة جديدة.»

«وتدبرين ظهرك للقوم أمك بهذه السرعة؟» علم تماماً كيف وأين يؤلمها.

انغرست أظافرها في كفّيها، لكنها لم تشعر بالألم. «هذا قاس منك، يا جوناس. ما أفعله في حياتي ليس شأناً من شؤونك.»

بدا جوناس غريباً، ووجهه حجرياً. «هل أقول هذا لتومي غداً.»

أمسكت أعصابها. «أخطط لأكون هناك غداً صباحاً، إلا إذا غيرت رأيك. عندها...»

«عندها تلزمين مجدداً.» ألمها الاحتقار في صوته، أكثر مما كانت لتتصور. «عيا اهربي، يا كورتني. لن يلحق بك أحد هذه المرة. أنت بالنسبة لي ميتة كتلك الشجرة، التي مررنا بها في الفلايدس.»

كانت قادرة على تصوّر تلك الشجرة، فارتعدت. «متى نمضي إلى المحكمة، في الصباح؟» حاولت أن تحافظ على هدوء صوتها، وخلوه من العاطفة.

«الثامنة والنصف.»

«سأكون مستعدة.»

«لا تندهشي إن كان تومي متوتراً عندما يراك. لا أظنه خطر لك أن تنتظري يوماً قبل انتحالك شخصيتك الجديدة.»

في الحقيقة لم تفكر كورتني أبعد من قص كل ارتباط بجوناس، سواء كان عاطفياً أم مادياً. تسريحة جديدة تعني حياة جديدة، حياة لا يكون فيها. لكنها لم تفكر أن قص شعرها، سيقطع جذورها الميكوسوكية. ومما زاد في عدم احتمالها لألمها، كون جوناس هو الذي لفت نظرها إلى هذه الناحية.

«إن لم يعد لديك ما تقوله عن قضية تومي سأصعد إلى غرفتي.»

مرت بالقرب منه، وتمكنت من الوصول إلى غرفة الضيوف قبل أن تنهار باكية على سريرها.

www.liilas.com

الفصل السابع

في اللحظة التي أعلن فيها القاضي براءة تومي ورفع الجلسة، اقتربت كورتني من الزعيم. «هل لي أن أعود بسيارتكما إلى المحمية؟ هناك ما أود مناقشته معك.»

«ألن تسافري مع جوناس؟»

«لا.» كانت تعلم ان جوناس يخطط لاعادتها إلى بيته، لكنها قررت القيام بهروبها، أثناء انشغاله مع القاضي في كواليس المحكمة.

«حسناً، تعالي.»

غادر ثلاثتهم المحكمة، ومشوا مسافة قصيرة للوصول إلى الشاحنة. تنفست كورتني الصعداء عندما استداروا حول زاوية الشارع، ودخلوا في اتجاه السير السائد. ربما يسر جوناس عندما يكتشف مغادرتها من دونه. يمكن أن يحضر حقيبتها عندما يأتي إلى المحمية المرة القادمة.

«ماذا يدور بخلدك، يا كورتني؟»

عضت على شفتها. منذ حديثها مع ليندا، قررت كورتني ان تقبل نصيحة صديقتها، وتفتش عن الحقيقة في ما يتعلق بجوناس. «أعلم انك ممتن لجوناس لكل ما قدمه للقبيلة، ولك ولتومي، بشكل خاص. لكن هل تعرفه بشكل جيد؟ هل تثق به ثقة عمياء؟»

لم يقل بوب شيئاً؛ ولا تومي. الزعيم عنيد بعض المرات، وهذه المرة إحداها. وتضامن الرجلان معاً.

«صحيح أن جوناس كسب تسوية ضخمة للقبيلة في واشنطن، لكنني أعلم أنه احتفظ بقسم كبير من المال لمشروع خاص، وأريد أن أعرف رأيك.»

لم ينبس الزعيم ببنت شفة.

«ألا تظن أنه يستغل الوضع بطريقة غير عادلة؟» سألت بغضب.

أصدر الزعيم صوتاً مضحكاً. «مجلس القبيلة على اطلاع على كل شيء، يا كورتني. الأفضل ترك هذه المسائل لشيوخ القبيلة.» كانه أفحمها بهذا الرد البليغ.

لم يتكلم أحد بقية الرحلة إلى رد مانغروف. لكن عندما توقفوا أمام منزل كورتني، قال الزعيم: «أنت مثل أمك تماماً.»

عرفت كورتني أن بامكانها فهم هذه العبارة بعدة طرق.

«هل تعني انني صريحة؟»

«لا. أعني أنك تعانين من جنون الاضطهاد.»

جنون الاضطهاد؟ لم تصدق أنه يقول لها كلاماً كهذا.

«شكراً للمساعدة.» قال تومي بالميكوسوكية بخجل.

«متى شئت، يا تومي.» قالت بنفس اللغة.

«تراك لاحقاً يا كورتني. شكراً لأنك ساعدت تومي.» قال بوب قبل أن يشغل المحرك ثانية.

«شكراً للتوصيلة.» قالت له.

كانت ملاحظته لا تزال تزعجها، وهي تدخل بيتها. راحت تفكر بها، وهي توضب الأغراض التي جاءت بها من المخيم بالطوافة. ولاحقاً عندما أوت إلى فراشها منهكة، كانت لا تزال تفكر بكلام الزعيم.

www.liilas.com

لقد جعلت كورتني تنظر إلى أمها من منظور آخر. هل كان استقلال أمها تعويضاً للمخاوف، التي لم تقدر السيطرة عليها؟ هل لهذا السبب فشل زواجها؟

ظلت الفكرة تقلقها، فلم تنم جيداً. في الصباح قررت أن تسأل أباها عن الموضوع عندما تزوره.

بعد أن اغتسلت وارتدت ملابسها، حملت عدة سلال ودمى، صنعتها العائلة، ومشت بها إلى المتجر المحلي. لكنها فوجئت بكونه مقفلاً. بل إن البلدة بأسرها بدت خاوية.

أسرعت إلى المطعم ودخلت إليه. «روزا؟ أين الجميع؟ أردت أن أدع هذه الأغراض في المتجر، لكنني لم أجد أحداً.»

حملقت روزا بها، كأنما لم يعجبها ما ترى. «لو بقيت هنا مدة أطول لعلمت ما يحدث.» قالت المرأة المسنة كأنها توبخها. لم تكن روزا لتسكت عن أمر لا يعجبها. وتسريحة كورتني لم تعجبها، لكنها لم تقل ذلك مباشرة.

أحست كورتني، بينها وبين نفسها، أنها منبوذة. حتى بوب أشاح بعينيه عنها عندما رآها. وعاملها ببرود حتى بعدما شهدت لمصلحة تومي من على منصة الشهود في المحكمة. وصبح تنبؤ جوناس، فلقد بدا تومي محرجا أمامها.

حتى عندما نظرت إلى جوناس، بدت عيناه تقولان لها: «لقد قلت لك.»

«حسناً، أنا هنا الآن.» قالت كورتني، وهي تحاول تغيير مزاج روزا. لكن روزا راحت تعجن خبز البيتين خلف المنضدة. «أظن أننا لن نراك بعد وفاة جدتك.»

جمدت كورتني. «من قال لك هذا؟»

«الناس.»

أحست بالغضب الشديد. لا بد أن جوناس تكلم مع روزا عنها.

«هل هذا صحيح؟» سألت روزا مصارحة.

«لا. بعد أن أنتهي في أوكلاهوما، سأقوم بالتدريس في ميامي. سترونني كل نهاية أسبوع.»

هزت روزا رأسها. «عندما تغادرين الولاية، لن تعودي. هذا ما يحصل عادة. تعلمين أن أمك ما كانت ليعجبها هذا الأمر.»

تأوهت من الإحباط. لم يكن باستطاعتها افهام روزا. «أعطتني أمي لأبي كي يكون لي مكان في عالم البيض، ويكون لي حياة أفضل. لكن ذلك لن يجعلني أترك مكاني هنا.»

«لقد ارتكبت خطأ.»

«هذا رأيك يا روزا. ما لاتفهمينه أن علم الإنسان هو حياتي، مثلما المطعم بالنسبة لك.»

«ليس لمدة طويلة.» توقفت عن العجن لتقدم لكورتني رغيفها المعتاد وكوب العصير.

«أنت الآن غامضة.» تمتمت كورتني. «هل قررت الزواج من إدي والعيش في الترابل؟»

«يستطيع إدي أن ينتظر. علي أن أصبح مستقلة مادياً قبل ذلك.»

«وكيف سيكون ذلك؟» سألت كورتني، وهي تمضغ كعكتها الساخنة.

www.liilas.com

«سأعمل بتجارة الماشية.»

ظنت كورتني أن روزا لم تسمع جيداً. «هل يعني هذا أنك ستنتقلين إلى مونتانا؟» قالت ممازحة، لكن فم روزا ظل على جديته.

«سأبقى هنا حيث أنتمي.»

«لتربي الماشية.»

«نعم، أنا الآن أملك مئتي رأس من الأنغوس.»

غصت كورتني بكعكتها، فتناولت كوب العصير وقالت: «ماذا تقولين؟»

«لقد سمعتني. الجميع في رد مانغروف يملكون ماشية الآن.»

«منذ متى؟»

«منذ ثلاثة أسابيع.»

«ماذا حدث منذ ثلاثة أسابيع؟» كانت محادثة روزا مثل محادثة بوب ويلي. لم يعطها أحد منهما الصورة الكاملة لأي شيء. كان عليها أن تستخرج كل شيء منهما جزءاً جزءاً، مما كاد يثير جنونها.

«لقد قرر المجلس شراء الماشية.»

«ولكن كيف؟ ذلك يكلف مئات الألوف من الدولارات.»

«هذا صحيح.»

«لكننا لا نملك المال.»

«نحن نملكه الآن.»

وقفت كورتني، ونسيت موضوع الإفطار. «لا أحد يفهم عن تربية الماشية أي شيء في هذه المحمية.»

«فهمت!» همست كورتني، وقد ابيض وجهها.

«لماذا أنت غاضبة؟ لا يهمك ما يحدث. سترحلين قريباً.»

«ليس هذا موضوعنا، يا روزا.»

«إن كنت غير مقيمة هنا، فلا يحق لك إبداء الرأي.»

«لم أغادر بعد!»

«لقد تغيرت. وهذا الشيء نفسه.» استمرت روزا في اصرار.

«لأنني قصصت شعري؟»

«لما كانت أمك لتوافق.»

«لماذا تنسون دائماً أن لي أباً أبيض؟» قالت بغضب.

«هاها» صاحت روزا: «وكأنني قادرة أن أنسى. تبدين مثله لكنه كان يحترم تقاليدنا.»

«وتم لجباره على العيش مع أمي خارج المحمية.»

«لا أحد يجبرك على الذهاب، يا كورتني.» وثقبت روزا كورتني بعينيها الفاحمتين. وصلتا إلى طريق مسدود.

«هلا تلطفت وأخبرتني أين الجميع؟» سألت بانزعاج.

«يعقد جوناس والزعيم لقاءً مع بعض الرجال من جمعية رعاة الماشية في مبنى المدرسة. لقد التقى بالنساء. إننا نتلقى دروساً عن رعاية الماشية.»

«لا بد أنك تمزحين.» فوجئت كورتني.

«مئتا رأس من الماشية لكل عضو في المحمية ليس مسألة مزاح. لقد تم استعمال مال تسوية الأراضي لتمويل هذا المشروع. كان جوناس وشيوخ القبيلة يعملون في الموضوع منذ أكثر من عام. مع الوقت سيدر على القبيلة ربحاً وفيراً.»

«وأين ستضعون الماشية؟»

«على الأرض التي استعدناها من الحكومة، طبعاً.»

أحست كورتني بالدم يجف في وجهها. هل هذا هو المشروع الذي تناوله جوناس في حديثه معها؟ أحست باعياء مفاجيء، وأوقعت السلال والدمى التي كانت تحملها.

نظرت إليها روزا بثبات. «ما بالك؟ لكأنك رأيت شبحاً شريراً؟»

لم تستطع كورتني أن تتكلم، وخرجت من مطعم روزا تاركة ما أوقعته وراءها. يجب أن تجد جوناس! جعل القلق معدتها تتشنج عندما اقتربت من المدرسة، حيث يجتمع على الأقل خمسون رجلاً من المحمية.

وقفت في آخر القاعة، كي لا تزعجهم. واستمعت إلى رجل خبير في تربية الحيوانات. كان يشرح كل شيء عبر مترجم. كان جوناس يجلس خلف المنصة قرب بوب ويلي، وشخص آخر لم تره من قبل.

مضت ساعة قبل أن ينتهي الاجتماع. لاحظها جوناس، لكنه لم يقم بأي حركة تظهر لها ذلك. بحثت عنه وسط الجمع، خائفة من رفضه. لم تعرف كيف سيستقبلها بعد خروجها السريع، ودون أن تكلمه بعد جلسة محاكمة تومي.

مر الرجال واحداً واحداً قرب كورتني، وهم يديرون وجوههم إذ كانوا يغادرون القاعة. استجمعت كل شجاعتها، واقتربت من آخر القاعة، وانتظرت حتى انتهى جوناس من الكلام مع أحد ضيوفه، فنظرت إليه، وقالت:

«جوناس؟ هل لي بكلمة معك؟»

«إن كان لديك سؤال لهؤلاء السادة، أقترح أن تنتظري اللقاء القادم المخصص للنساء.»

بدا الرجل الأشقر الملتحي، الذي كان يحادث جوناس، مستعداً للاجابة على أي سؤال قد تطرحه. «لا بأس، يا جوناس.» ابتسم لكورتني، وكذلك فعل الرجل الآخر. بدا الرجلان مهتمين بها أكثر من الحديث الذي كانا يتحدثان به. لكن اهتمامهما بها أثار حنق جوناس. نظرته الباردة لفّت حول صدرها حزاماً قاسياً، منعها من التنفس بسهولة.

«جوناس.» توسلت عيناها. «كنت أريد مخاطبتك قبل أن تغادر اليوم.»

«هل هو موضوع عاجل للقبيلة؟» سألها بفظاظة صدمتها.

«نوعاً ما.» كان جوابها.

«عذراً لدقيقة» تمتم للرجال، وأمسك بمرفق كورتني لإبعادها عن مجال السمع. «قولي ما ترينين قوله. معك دقيقة.» ترك يدها كأنما كانت تحرقه.

عضت على شفتها. لم يعد من مجال للحديث معه، وقربه شتت كل تفكيرها. «قد أحتاج أكثر من ذلك.»

«كما ترين، أنا مشغول. تكلمي مع بوب.»

مررت يداً مرتجفة عبر غرّتها. «أنت الوحيد الذي يقدر على الاجابة عن أسئلتي.»

ضاقت شفتاه. «اتصلي إذاً بسكرتيرتي وخذي موعداً.»

تراجعت إلى الوراء. «هل أنت عنيد عمداً أم مجرد وقح؟»

«أعتقد أنك اكتسبت هذه الصفات، يا كورتني. انتهت الدقيقة.»

www.liilas.com

«جوناس...» همست بالم: «لا تكن هكذا. أحتاج أن أكلمك.»

بدا الصمت أبدياً. «كما قلت لك، اتصلي بسكرتيرتي، رقم مكتبي موجود على لوح الإعلانات في مطعم روزا. والآن علي أن أتركك.» عاد إلى الرجلين دون أن ينظر إلى الخلف.

خرجت كورتني من القاعة، وتوجهت إلى المطعم مباشرة. تجاهلت كورتني نظرات روزا المتسائلة، فيما كانت تحدق في كل الإعلانات على اللوحة. وجدت عنوان العمل وهاتفه عند جوناس. لقد فتح مكتباً في ميامي بدلاً من شاطىء ميامي. علمت من العنوان أن المكان يقع على بعد شاسع من مؤسسة باين القانونية في بال هاربور.

الإعلان يشرح أنه بإمكان الجميع في المحمية أن يتصلوا ليلاً نهاراً كلما احتاجوا شيئاً، وتسجيل المخابرة على حسابه. كانت كورتني بحاجة لبعض الأجوبة كي تحظى بالطمأنينة.

دون أن تفسر لروزا ما يحدث، طلبت منها ورقة وقلماً، ودونت المعلومات، وطلبت موعداً من هاتف المطعم.

الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي، كانت تجلس في غرفة الاستقبال داخل مكتب جوناس. «سيراك السيد باين الآن.» قالت السكرتيرة السمراء، المفعمة بالنشاط بعد أن أعلمت جوناس عن قدوم كورتني. للحظة أحست كورتني بالغيرة. فالسكرتيرة لها دور مع رئيسها لا يختلف عن دور الزوجة. لم تعجبها فكرة وجود امرأة أخرى تحظى باهتمامه. حتى ولو كانت العلاقة علاقة عمل، فالأمور تتطور عادة إلى أكثر من ذلك. فعلاقة كورتني بجوناس بدأت هكذا.

مرت كورتني قرب طاولة المرأة، ثم توجهت إلى مكتب جوناس. كانت غرفة بسيطة فيها طاولة وثلاثة كراس. ليس لهذا المكان أيّ رهبة، وكان يشعر فيه أهل المحمية بالارتياح. إنه الأفضل لوظيفة كهذه.

كان جوناس يجلس على كرسيه الدوار، وهو يرتدي قميصاً كاكياً. أظهر اللون الأخضر الباهت عن طريق المغايرة، جمال جسمه البرونزي وشعره الأسود. فقد قص شعره بعد المحاكمة، لكن مهما كانت تسريحته يبقى أكثر الرجال الذين مروا في حياتها جاذبية.

«شكراً لاستقبالي، يا جوناس.» قالت، وجلست على أحد الكراسي الحديدية المواجهة له. كانت نظرته الساخرة تدفعها للدخول في الموضوع مباشرة. «هلا أجبتني عن سؤال واحد؟»

قضم طرف قلمه. «حسب السؤال.»

الظاهر أنه لم يرد أن يجعل الأمور سهلة عليها. لم تقدر أن تلومه بعد كل ما جرى.

«هل مشروع الماشية، هو المشروع الذي تحدثت عنه عندما سألتك عن موضوع تسوية الأراضي؟»

نظر إليها بثبات. «هذا صحيح. كنا نتباحث أنا وبوب بموضوع تربية الماشية، عسى أن يصبح مورد رزق للقبيلة. والأرض تخص الميكوسوكي. قد سلبت بطريقة غير شرعية منهم منذ سنين. هي الآن لهم مجدداً.»

أحست بدوار في رأسها. «وقد اشتريت الماشية من التعويض؟» كان السؤال بلاغياً فهي تعلم الجواب سلفاً.

«استثمرنا جزءاً من التعويض. المجلس يريد انشاء

www.liilas.com

مستشفى جديد في المحمية، ولكن هذا المشروع لا يزال قيد التحضير.»

لم تستطع البقاء جالسة. «جوناس...» تمسكت بطرف طاولته. «لم أكن أعلم.» نظرت في وجهه. «لِمَ لم تخبرني عن كل هذا عندما كنا نتقابل؟»

بدت تعابير وجهه عادية. «برغم قربنا آنذاك، لم أكن أملك الإذن من المجلس كي أحدث أحداً عن هذا الموضوع، ولا حتى أنت. طلبوا مني القيام بخدمة، وكان علي أن أحافظ على سرية خططهم. كنت لأخسر ثقتهم لو تكلمت عما يدور في رؤوسهم.»

كان يقول الحقيقة. كانت كورتني واثقة. كونه رجلاً مستقيماً أكسبه محبة جميع أفراد القبيلة.

«ما فعلته قد يغير الحياة في المحمية،» قالت، دون أن تخفي إعجابها. «أنا خجلى لأنني أسأت الحكم عليك. لا أقدر إلا أن أعتذر وأرجو أن تغفر لي.»

«العذر مقبول.» قال بهدوء: «لكن الأيام وحدها هي التي ستظهر إن كان هذا المشروع أفضل من غيره للقبيلة.»

«ربما يفشل إذا سلّمت المسؤولية لشخص آخر لا يملك قدرتك وعلمك.»

بدت معالم وجهه متشنجة. «إما أنا رجل استغلالي حقير، أو رجل خبير وذو نظرة مستقبلية. أيهما، يا كورتني؟ لا يمكن أن أكون الاثنين معاً.»

أحست بوجهها حاراً. «أعرف أنني ظلمتك، ولك الحق في احتقاري. ما أرجوه هو بقاؤك في هذا المشروع حتى ينجح فعلاً.»

وقف ببطء على قدميه. «وهل أنا ذاهب إلى مكان ما؟» سأل بصوت هادىء، لكن مهيب: «لديك قدرة خارقة على قراءة أفكاري، وفهم خططي أكثر مما أفهمها أنا نفسي.»

أخذت نفساً عميقاً. «هل بوب يعلم أن وظيفتك كمدير قد تكون مجرد خطوة مؤقتة؟»

«خطوة مؤقتة لماذا؟» همس بنبرات مهيبة، جعلتها تتراجع خطوتين إلى الوراء.

«جوناس... أعلم الخلفية التي تأتي منها. ربما لست مهتماً الآن، لكن في المستقبل القريب قد تفكر بدخول المضمار السياسي. ستكون مأساة للمشروع أن ينهار، في الوقت الذي تكون فيه القبيلة بدأت تعتمد على نفسها. أهل أمي يريدون من يكون معهم أن يبقى كل حياته. هكذا يمكن لفكرة رائعة كفكرتك أن يكتب لها الحياة.»

لمفاجأتها، جلس دون أي تعبير على وجهه. بدت كأنها ساعات، قبل أن يقول: «إن جئت تعتذري، اعتبري الاعتذار مقبولاً. عندي أعمال أخرى. أظن أنك تعرفين طريق الخروج.» رن لسكريترته. «ادخلي الموعد التالي، يا سيندي، ثم نخرج للعشاء.»

كانت كورتني قد طردت بكل ما للكلمة من معنى. «وداعاً، يا جوناس.» راحت تتخبط في الخروج من مكتبه، دون أن تثير سخريته.

بعد التاسعة مساءً وصلت كورتني إلى منزلها في المحمية، وهرعت إلى الداخل، حيث بإمكانها أن تطلق العنان لعواطفها المكبوتة دون أن يراها أحد. يا ليتها لم تذهب إلى مكتب جوناس، فتلك الزيارة زادت الأمور سوءاً.

www.lifas.com

فزعت حينما سمعت طرقة على الباب الخارجي. ظنت أنه جوناس، فهرعت عبر الغرفة بأمل محموم. «روزا!»

«أكنت تتوقعين شخصاً آخر؟»

مررت يديها المرتعشتين في شعرها. «لا، طبعاً لا، ادخلي»

ظلت روزا في مكانها. «لا، تأخر الوقت. أنا تعبة، ويبدو عليك الاعياء. بوب ويلي أرسلني»

«ما الأمر؟»

«وافق مجلس القبيلة على مشاركة جوناس في رقصة الذرة الخضراء، لكنه يحتاج لمترجم. يريدك بوب أن تقومي بالترجمة.»

حملقت كورتني في وجه روزا. «لكن لم يُسمح منذ سنوات للغرباء بحضور هذا الإحتفال.»

«صحيح، لكن المجلس وافق استثنائياً على حضور جوناس لأنه المدير الجديد. إنهم يعتبرونه واحداً منهم.»

«لن أكون هنا. عليهم إيجاد شخص آخر.»

«كيف تعلمين هذا؟ شارلي هو الوحيد الذي يعلم الموعد، ولم يقل للمجلس بعد. لكن الموعد قريب.»

«لا أقدر.» هزت رأسها رافضة.

«يجب عليك الحضور. أنت الوحيدة التي تستطيع شرح كل شيء كي يقدر جوناس على الفهم.»

«قدمي اعتذاري لبوب، لأنني سأسافر لأرى أبي قبل أن أمضي إلى أوكلاهوما.»

«لن يعجبه الأمر.» استدارت وتوارت في الظلام، تاركة كورتني أكثر اضطراباً من أي وقت مضى.

في الرابعة صباحاً، كانت كورتني لا تزال مستيقظة. حتى لو لم تكن مسافرة، كيف تترجم لجوناس. لن يوافق على كل حال. لم يكن بوب يملك أدنى فكرة عما وصلت الحال إليه بينهما.

حوالي الخامسة، كفت كورتني عن محاولة اللجوء للنوم فنهضت واستحمت، ثم نظفت بيتها. كانت بحاجة للحركة الجسمانية كي لا تفكر، لكن لا شيء كان يساعدها على ذلك. تمنت لو تمضي إلى زانير في تلك اللحظة. ربما لن تعود إلى فلوريدا، وهي تحس بهذه المشاعر. كانت روزا محقة.

عند الثامنة كانت كورتني جاهزة للذهاب إلى شاطىء ميامي لتناول الإفطار مع ليندا، التي كانت تحضر لحفلة وداعية لكورتني. كانت لفتة محببة، لكن كورتني لم تكن تريد الاحتفال.

عندما كانت تدير المحرك، قاطعها بوب ويلي. «مرحباً، كورتني.»

قالت متأوهة، لما سمعت صوته: «مرحباً، بوب.»

«تقول روزا إنك لن تساعدينا في رقصة الذرة.»

«صحيح. أنا مغادرة الولاية.»

«يريدك الشيوخ أن تترجمي.»

«أعلم ذلك، لكنني لا أقدر.»

«متى ترحلين؟»

«بعد أسبوع من اليوم.»

«هذا حسن. الإحتفال سيبدأ بعد غد.»

«ظننت أن شارلي لم يعلن الموعد بعد.»

«أخبرني فجر هذا اليوم.»

www.liilas.com

«برغم هذا لا أقدر.»

«لا أرى مشكلة. أنت كوالدتك. تقولين لا، في حين أنك تعنين نعم.»

«لا تسألني عن السبب، يا بوب.»

«لا يمكنك أن تخذلي المجلس بعد أن أعلن رغبته. إضافة إلى ذلك قالوا إن بإمكانك تسجيل الاحتفال على شريط.»

وسّعت المفاجأة عيني كورتني. «لِمَ يسمحون بعمل كهذا؟»

«أوضح لهم جوناس أهمية عملك في الحفاظ على ثقافتنا، ووافقه الرأي. بذلك يقدر أحفادي في المدينة أن يتعلموا تقاليدنا وطقوسنا. ماذا تقولين؟»

ماذا بإمكانها القول؟ بالسماح لها بتسجيل أعرق أغاني وأهازيج الميكوسوكي، كانوا يضعون بين يديها ثقة عمياء. كان هذا الأمر تقديراً لها من أعلى الدرجات، قد يسعد أمها لو كانت لا تزال حية. كما عكس تأثير جوناس المتنامي على الشيوخ.

كان يعلم أهمية ضم طقوس رقصة الذرة إلى أطروحتها. مرة ثانية، كانت مدينة له بشيء لا تقدر أن ترده.

«هل يعلم جوناس أنني سأقوم بالترجمة؟»

«طبعاً. يقول إنك الخيار المنطقي.»

ألقت رأسها على خلفية المقعد. «حسناً. سأقوم بذلك. قل للشيوخ إنه يشرفني تخصيصي بهذا الامتياز.»

«سأخبرهم.»

«أين سيقام الاحتفال؟»

«ستريك روزا.»

وذعا بعضهما بعضاً وأحسّت كورتني بشيء يشبه الدوار. برغم أنها كانت تحاول عدم الاعتراف بذلك، كانت متحمّسة لأنها ستمضي مزيداً من الوقت مع جوناس، قبل أن يفترق طريقاهما.

سمحت لها والدتها في الماضي أن تحضر رقصة القمح لأول مرة وكان عمرها ثلاثة عشر عاماً. لكن حضورها مع جوناس سيكون أمراً مختلفاً. فالاحتفال سيستمرّ أربعة أيام بلياليها. أحست بالرغبة تنتشر في جسدها لمجرد التفكير بأنها ستكون بقربه مرة أخرى. لا بد أن تجد طريقة لإخفاء مشاعرها عندما يتلاقيان. بعد حادثة الأمس لا بد أن جوناس لن يعاني من هذه المشكلة.

سيطر على أفكارها كالعادة، فيما كانت تقود إلى المدينة. كانت مشغولة البال على الإطلاق، مما لفت نظر ليندا، ومما جعل كورتني تحس بانزعاج. لقد تعبت ليندا في التحضير لحفلة سباحة، ومشاو في نهاية الأسبوع القادمة. لكن ما كان يشغل بال كورتني تماماً، كان جوناس وما سيحدث عندما يتلاقيان من جديد.

طلبت السماح من صديقتها، وحاولت أن تبدو مبتهجة ومتحمسة، لكن ليندا التي تعرفها جيداً اقترحت تأجيل الحديث إلى وقت لاحق من الأسبوع. كانت ليندا تتعافى من قصة حب فاشلة، وكانت تعرف كيف تقرأ الإشارات.

أمضت كورتني ما تبقى من النهار في الجامعة تنهي بعض الأعمال العالقة، ثم عادت إلى المحمية عند العشاء. كان الحماس قوياً في مطعم روزا.

www.liilas.com

كان تومي يود إعلان رغبته في الزواج من الفتاة التي يحب، أثناء رقصة الذرة. الفتاة تعيش في الترايل ويتوقع والداها أن تخطب على الطريقة التقليدية.

دخل فرانك بيرد، فيما كانت كورتني تتناول عشاءها وتتحدث مع تومي. كانت تعلم أنه يريد الجلوس بقربها، لكنه لم يجرؤ على ذلك، لإنها كانت مشغولة. ثم غادر عندما رأى كورتني مستمرة في الحديث مع تومي، الذي اشتعلت عيناه بالفرح والأمل. كانت تحسده لأنه يطم ما يريد، ولأنه قادر على الوصول إلى الفتاة التي يهوى دون خوف.

عادت كورتني إلى منزلها بحزن يسكنها وناست قليلاً لمفاجأتها. كان اسيياهولو وابن خال آخر على بابها في الصباح الباكر. جاءا ليحضرا رقصة الذرة، ولكن كانا يريدان القيام ببعض الصيد قبل بدء الاحتفال. حضرت الإفطار لهما. بدا اسيياهولو مسروراً لحضور جوناس الاحتفال. أراد أن يكلمه عن خدع الصيد.

بعد قليل عرفت أن معظم أفراد القبيلة ذهبوا إلى مكان ما قرب التاميامي ترايل لتنظيف ساحات الرقص، ولإصلاح الأكواخ تحضيراً للاحتفال الذي قد يبدأ اليوم التالي.

لم يظهر جوناس بعد، لكنها لم تشك في أنه سيظهر في المكان المحدد عند الفجر. بعد رحلتهما إلى عائلة أمها، علمت أنه ينغمس تماماً في أي عمل يقرر أن يأخذه على عاتقه. إضافة إلى أنه يحترم القبيلة وطرق عيشها.

عندما راحت سماء حزيران تحمر مع الفجر، كانت كورتني تستحم، ثم وضعت ثوبها الميكوسوكي ونعلها. لم تضع أي زينة، لكنها لم تقدر أن تفعل شيئاً لقصتها الجديدة.

التنازل الوحيد الذي قدمته لمستحضرات التجميل كان قليلاً من العطر المفضل لديها. جوناس دوماً يلاحظ الأشياء الصغيرة، وأرادت لذكراه الأخيرة عنها أن تكون مستمرة.

لن تتخطى ذكراه، ولو عاشت إلى سن جدتها. لا تستطيع أن تتخيل نفسها متزوجة من سواه. لذا كانت تسرّ كلّما فكرت بالأربعة أيام، التي ستمضيها برفقته.

بعد الإفطار، مضت هي وروزا بشاحنة كورتني إلى مكان الاحتفال، وكان في الشاحنة كل عدة التسجيل.

«جوناس بانتظارك.» قالت روزا، فيما كانت تركن شاحنتها تحت شجر الصنوبر.

لاحظته كورتني فوراً. كان يرتدي جينزاً وقميصاً أبيض ملتصقاً بذراعيه وصدره، مما أبرز قوته وصلابته. كان يبدو وحيداً، وكأنه يفكر عندما نظر باتجاههما.

كالعادة، نظراته الثاقبة وسحر حضوره سكنت كورتني. تساءلت حول قدرتها على الاستمرار للدقائق التالية، ناهيك عن الأيام الأربعة، دون أن ترتمي بين ذراعيه.

«كورتني، روزا.» أومأ، وساعد روزا في الخروج من الشاحنة قبل أن يأتي ناحية كورتني. لكنها عرفت نواياه، فقفزت من الشاحنة، وراحت تحضر أغراضها من الخلف.

«أراكما لاحقاً.» قالت روزا ومضت باتجاه أحد الأكواخ. كان النسوة يحضرن الطعام، فيما تجمع الرجال لبدأ الاحتفال.

ساعدها جوناس في افراغ عدّتها. التمعت عيناه بأخضر غريب في ذلك الصباح الباكر، فيما كان يتأمل معالمها. أجبرت نفسها على النظر في وجهه غير الباسم.

www.liilas.com

«لولاك، يا جوناس، لما سنحت لي هذه الفرصة. أنا شديدة الامتنان.»

«لماذا تشكرينني؟ إنه قرار القبيلة.» قال بإيجاز.

«لأن لك طريقة في جعل الناس يفعلون ما تريد دون أن يعوا.»

«ودون أن ينتبهوا لثمن ذلك.» أتم كلامها بمرارة.

«لم أقل هذا.»

«سبق وقلته.»

«لقد اعتذرت لذلك.» همست، وأحست بنفسها ترتجف.

«إن كنت ساترجم لك، سادّعي أننا لا نزال صديقين.»

«هذا ما لم نكنه أبداً... لأنك لا تعلمين ما تعنيه هذه الكلمة.»

الفصل الثامن

«يقول بوب ويلي لي دائماً انني أشبه أمي، وكانت تؤثر العزلة. أظن أن هناك درساً في كل هذا.» هنأت نفسها لحفاظها على هدوء صوتها، برغم أن ملاحظة جوناس، طعنتها في الصميم.

«اللعنة!» قال جوناس وجسده مملوء بالعاطفة: «ما كان يجب أن أقول هذا الكلام.»

مررت كفها الندي على شفتها. «ولمَ لا؟ إنها الحقيقة. لقد توصلت إلى استنتاجاتي عنك بناء على ما سمعته من الناس.»

بحثت عيناه عن عينيها لدقيقة بدت أبدية. «من باب الفضول، من أوحى إليك في المكتب انني أستغل القبيلة لأغراض خاصة بي؟»

«أفضّل ألا أقول.»

«ولاؤك لأبي يدهشني.»

«لم يكن أبوك.» أجابت كي لا تعطي جوناس سبباً جديداً ليكره أباه. لم يهدّئه كلامها.

«يبدو أنك قد أقمت علاقة مع أبي. لا يبدو أحد غيرك في المكتب على مثيلها. لماذا؟»

لم تفهم إلى ما يحاول الوصول، لكنه بدا غاضباً. «كان يبقى في المكتب بعد مغادرة الجميع. بما أنني كنت أعمل ليلاً، كان يدخل غرفة الحاسوب ويتكلم

www.liilas.com

معي. ومن ملاحظة عابرة، علم انني أهتم بعلم الأنساب، وهو هواية عنده، فتصادقنا على ما أظن.»

«وكونك الانسانة التي أعرفها، رحت تستمعين، فيما راح يفضي إليك بأسراره، أليس كذلك؟»

تراجع رأسها. «لا أسميه إفضاء أسرار، لأنه كان يتحدث عنك دون انقطاع إلى الجميع. تعلم بكل تأكيد أنه يعبد الأرض التي تمشي عليها. إنه يشبه أبي في هذا المجال. هذا هو الثمن الذي ندفعه كوننا أبناء.»

مرر جوناس يديه في شعره الأسود، وظل ينظر إليها عن قرب. «أخبريني عن رقصة الذرة.»

التبدل المفاجئ في الحديث أدهش كورتني، لكنها سرّت للابتعاد عن الحديث عن أبيه. «إنه الشعيرة الدينية الرئيسية لدى الميكوسوكي. الشيوخ يصومون، وتطلق الأسماء على الأطفال، ويتم تقرير الزيجات، وتنعقد المحكمة القبلية.»

«ما الذي يحدث الآن؟» ونظر إلى حيث كان الرجال والفتيات يكوّمون الحطب.

«يقوم الطبيب باستحمام احتفالي، ثم يقوم بإدارة كل النشاطات. لاحقاً هذا اليوم ستقام لعبة كرة، النساء ضد الرجال.»

«هل أقدر أن أشارك؟»

«يتوقعك بوب ويلي أن تشارك. سيكون هناك رقص الليلة، وسيتقدم تومي من الفتاة التي يرغب بالزواج منها.»

«تومي فقط؟»

«كل شاب يتمنى الزواج يقدر أن يرقص مع الفتاة التي يختار.»

«ثم ماذا يحدث؟»

بلعت ريقها بصعوبة. «إذا أظهرت سعادتها بالضحك، أو بإشارة من عينيها، أو بأي حركة، يحادثها. قد يدعوها للأكل عند ناره. إذا تطور الأمر نحو الأفضل، يغازلها، ولا يتبادلان القبل. وتأكل من لحم الغزال الذي اصطاده. وإذا وافق أهلهما، يحدد موعد الزواج.»

«أين؟»

«حسناً، في الموعد المحدد تنتظره في كوخ أهلها. ستنتظره بفارغ الصبر، ويصل عند الغروب... إن كان سيأتي.» وتضاءل صوتها، إذ تصورت نفسها في انتظار جوناس، وهي تعلم أنه لن يأتي. ليس بعدما فعلته به.

«ثم؟» بدا ملحاً. «لا تتركيني معلقاً.»

«تقول له إنها مسرورة لأنه جاء ويدخل الكوخ. وتبدأ حياتهما المشتركة.»

«ألا يقولان: موافق وموافقة؟»

«لا.» هزت رأسها «الموافقة محسومة، فهما يعرفان أحاسيس بعضهما منذ رقصة الذرة، وكذلك الجميع.»

«لو تمت كل الزيجات بهذه البساطة، لغدا جميع العاملين في مجالي عاطلين عن العمل.» قال بجفاف: «ماذا لو غيرت المرأة رأيها؟»

«لا تستقبله في الكوخ ويرحل.»

«ألا يقاتل في سبيلها؟»

www.liilas.com

«لا. كلّ يتقدم إلى الآخر بحرية تامة. الميكوسوكيون ليسوا عنيفين.»

«أبداً؟»

«ليس على حد علمي.»

زم شفتيه. «هل شارك أبوك في رقصة الذرة؟»

كان كل سؤال يطرح يزيد من انزعاجها. «لا. أنت واحد من البيض القلائل الذين تمت دعوتهم للمشاركة.»

سمعت صوت شهيقه. «أظن أنه علي الذهاب للمساعدة في جمع الحطب.»

«سيشعلونه الليلة ناراً ضخمة، ويقومون بعدة رقصات احتفالية، قبل أن تبدأ رقصة الغزل. ساحضر عدتي، بينما تعمل مع الرجال. عندما تجوع ابحث عني، وسنأكل في أحد أكواخ الطعام. روزا تطبخ طائر الترج وهو لذيذ.»

«سأفعل.» وعدها، ثم مضى.

لم تقدر على ابعاد عينيها عنه، فيما توجه نحو الباقين. أرعشتها رجولته الواثقة وطريقة سيره. تمنت لو لا يزال يحبها كما في السابق. لكان رقصا معاً الليلة. لكانت ضحكت له، وأعامته من تمايل جسدها أنها تريد العيش معه للأبد. لكانت جلست معه قرب النار، وأكلت من طعامه، واستكانت في حضنه تحت قمر فلوريدا الكبير.

اقترب منها احد الشيوخ، فأعادها إلى الواقع. لحقته إلى البقعة المقررة مع عدتها، وراحت تحضر الآلات. بعد انتهائها مضت إلى كوخ الطهي لتساعد روزا. بعد ظهر ذلك اليوم أخذت مكاناً لتسجل احتفالات المساء.

كانت رقصة ريشة البلشون بقدم القبيلة نفسها. فيما

راحت كورتني تسجل الأهازيج، راح جوناس يتفرج على الرقصة بتركيز قوي. كانت ألسنة النار تداعب السماء المضملية، وتعكس ظلالاً مهتزة على جلده القاتم، فيما كان يجلس القرفصاء كالآخرين الجالسين في نصف دائرة.

كلما نظرت باتجاهه، أحست بقلبها يقفز. بدت عيناه هذه الليلة تلمعان كزمردتين. لكنه لم ينظر ناحيتها أبداً. كان يركز كالجميع على الراقصين. أحست بنفسها غير موجودة.

عادت إلى الشاحنة لتحضر شريطاً، وقد جرحتها لا مبالاته. أرادت أن يكون معها شريط احتياطي في حال طرأ طارىء أثناء التسجيل.

لم تعلم كم ستتحمل رؤية العشاق الفتيان في رقصة الغزل، وجوناس في الجوار. أحست بالابتهاج في الأجواء. لم تعد تحاول اخفاء ما تحس به. لو ينظر جوناس إليها، فسيرى الرغبة والتوق في كل رمشة من عينيها، وفي كل حركة من جسدها.

وقف الفتيان الواحد تلو الآخر، وتقدموا باتجاه الفتيات المختارات. شاهدت كورتني الفتاة التي اختارها تومي تلحق به إلى حلقة الرقص، وهي تمر أولاً أمامه، ثم خلفه دون أن تبتعد عيناها عن عينيه، مع تماوج في جسدها يتناغم مع الألحان.

وقف تومي ويداه على صدره. لم يفترض به أن ينظر إليها.

المفروض أن يتجاهلها، لكن كورتني شاهدت عينيه

www.liilas.com

ترمقانها من وقت لآخر في براءة، وسعادة حب الفتوة. كاد المشهد أن يفجر دموع كورتني.

ثم حصل شيء كان يجب أن تتوقعه. وقف فرانك بيرد ومشى نحوها. لقد حذرتها روزا، لكنها لم تأخذ كلامها على محمل الجد. وما زاد في الأمر سوءاً، وجود كورتني بعيداً عن النساء والفتيات. ملأتها تعابيره بالخيبة.

كان يعرف أن رفضها الرقص معه سيهينه. ولكن إن تجاوبت معه بدافع من التهذيب، فربما يفسر ذلك بأنها تغازله. لذا عليها أن تقول له إنها ترفض عرضه. هذه العقدة كانت صعبة الحل.

لا بد أن الذعر بدا على وجهها، لأن جوناس وقف وتوجه ناحيتها. لأنه كان أقرب إليها من فرانك، الذي وصل قبله. هذه المناورة جعلت فرانك يغير طريقه، ويتوجه إلى فتاة أخرى.

نظرت في عيني جوناس فرأت ضوءاً غريباً فيهما. كان قلبها يطرق والدم يطرق في أذنيها. جوناس يأتي دائماً إلى نجدتها، لكن هذه المرة ما يقوم به يساوي كل ما في الليلة من سحر.

علم جوناس ما الذي يحدث، فمنع مشكلة مزعجة بتدخله بالطريقة الملائمة. أما كورتني فاحساسها كان أعمق. استحوذ عليها تماماً نصفها الميكوسوكي. بحركة كما في الأحلام وقفت على قدميها، ودون عقد أو عقبات تكلمت العيون.

لأول مرة منذ عرفته، أحست نفسها حرة للتعبير عن حبها، فهي تعلم أنها لن تراه قط بعد رقصة الذرة. سمحت له

بمرافقتها إلى حلقة الراقصين. بدا في عينيه التنبه إلى التحدي، وتحرك نحوها برشاقة رجولته.

تأملت بكبرياء كيف ضم ذراعيه القويين على صدره العريض، وأرادت أن تصيح للجميع بأعلى صوتها: «هذا صيّادي، ومحاربي، ورجلي... وأبو أولادي، قلبي، وروحي. إنه يهتم بي، يلاحقني، يحرسني. إنه عاشق جسدي، وشافي آلامي.»

كازهار الخزامى التي تتفتح باتجاه الشمس، مظهرة براعمها الأرجوانية، تفتح حب كورتني لجوناس عندما مشت أمامه. وهي تحرك ذيل تنورتها الطويلة للمسح طرف بنطاله.

نسيت كل شيء وكل الناس بعد ان أصبحت الأغاني جزءاً حياً منها. نظرت إلى عينيه المتوهجتين بنبض متوتر، كأنها تريد أن تكشف له خفايا قلبها.

وصلت الرقصة القديمة إلى ذروتها، وركعت كورتني أمامه، ورفعت يديها، بكفين مفتوحين، كأنها ترجوه كي يقبل هديتها. أو إنها تقدم قلبها له إلى الأبد. كانت تريد أن تنتشر رسالة حبها، كعطرها، في هواء الليل الساخن كي تغلق وتسكر الرجل، الذي استولى على قلبها منذ أول نظرة. توقف الغناء فجأة فاضطربت بنبض كورتني. وقفت وابتسمت له بسحر، قبل أن تحني عينيها مثل العروس.

حافظ جوناس على هدوء وجهه خلال الرقصة، وبعد انتهائها. لحق بالفتيان، وجلس في بقعة معزولة حول النار. وكما فعلت الفتيات لحقت كورتني به. عندما جلس، جلست قربه.

بخلاف الباقيات، لم تعد ترسل إليه رسائل عبر العيون. انتهت الرقصة وأحست بالتعب من هذا الامتحان. لقد أعطته روحها وكيانها. هي الآن وعاء فارغ.

«سآتيك بالطعام.» قالت بصوت خفيض، وحاولت النهوض دون أن تنظر إلى عينيه.

«لست جائعاً.» أجابها بطريقة غير متوقعة، وهو يلتقط يدها فاضطرت للبقاء حيث هي.

أعادها صوته الأجش إلى الواقع. «إنها التقاليد. حتى لو لم تكن جائعاً، علي أن أحضر الطعام.»

سمعت تنهداً عميقاً. «تأكدي أنك سترجعين، يا كورتني. لدينا ما نتحدث عنه. إذا وضعت نصب عينيك الهرب مجدداً، كوني أكيدة انني سألاحقك حتى أجدك.»

جعلها العنف المكبوت في صوته ترتعد، فمضت بسرعة إلى أحد أكواخ القطيع، حيث التقطت أنفاسها لدقيقة. لا يمكن لأحد أن يكون صوته دليلاً لقلة حبه مثل جوناس.

ربما أحرجه رقصها. فالقبيلة بكاملها صارت تعلم من تحب. لقد ردت رغبته في انقاذها من فرانك بيرد برقصة مثيرة تنافس رقصة سالومي. ماذا جرى لها؟

فيما كانت تسكب لحم التدرج والبطاطا الحلوة في صحن، راحت روزا تتفحصها بعينيها، لكن لحسن الحظ لم تتلفوه ببنت شفة. وماذا تقول؟ رقصة كورتني فضحت كل شيء.

مشت بكل الكرامة التي استطاعت اصطناعها، وبيديها طبقا طعام إلى جوناس ووضعتها على الأرض أمامه. فيما راحت تجلس أحست أنه ينظر إلى وجهها، وعلى

الشكل المميز لعينيها. اجتاحتها موجة من الحرارة كادت تخنقها.

لم يلمس طعامه. «كان رقصاً مميزاً.»

حاولت أن تنظر إلى جميع الاتجاهات باستثناء اتجاهه. «لقد قمت بذلك بسبب فرانك.»

«عجباً. لم ألحظ فرانك، ولا أي شخص آخر أثناء رقصتك.» وتوتر نبض في جبهته.

«حاولت أن أكون مقنعة.» تابعت: «مع هيون القبيلة عليه، كان من المهم أن يحفظ ماء وجهه. بما أنك تقدمت قبله، حاولت جعل القبيلة تظن انني اخترتك. هكذا لا يهان فرانك. تظن القبيلة الآن أن الأمر مدبر سلفاً، وبذلك لا يجرح شعور أحد. لقد اختار واحدة أخرى، ويقدر أن يرفع رأسه لأنها بادلته الشعور.»

ضاقت عيناه. «لكن فرانك أرادك.»

«هذا ما كان يتصوره. كما قلت لك، يعتبرونني غريبة الأطوار.»

«لا تظني هذا حقاً.» قال متشدقاً بكلامه: «رأيته يراقبك من قبل. ورأيت كيف ينظر إليك الليلة. لو كانت النظرات تقتل، لكنت ميتاً الآن.»

«هذا سخيف.»

تناول قطعة من لحم التدرج وقضمها بأسنانه البيضاء الرائعة. «لا تعلمين كيف تؤثرين على الرجال، يا كورتني.»

لم تعرف ما تقول، فتناولت قطعة من البطاطا الحلوة، لكنها بلعت بصعوبة. «كانت حركة جريئة منك يا جوناس، لكنني أقول لك إنني أحسست بارتياح.»

www.liilas.com

«حقاً؟»

التمعت عيناها. «هل لديك شك؟»

«لا أعلم. ربما هناك العديد من الرجال الذين يرغبون بك، ما فعله فرانك استلزم شجاعة كبيرة. لا يجرؤ أي رجل على الاستحواذ عليك، ولو كان يتوق لذلك.»

«هل أنا صعبة المنال لهذه الدرجة؟» سألت بصوت بأهت.

«لست الشخص الملائم للاجابة.» أخذ يأكل البطاطا الحلوة بشهية. «وماذا يحدث الآن؟»

«ماذا تعني؟»

«هل انتهى الاحتفال لهذه الليلة؟»

«لا. سيلجأ الرجال الآن إلى منطقة معينة ليصوموا. وستنام النسوة في الأكواخ. غداً يشرب الرجال شراباً خاصاً لتطهير أرواحهم من الشوائب. ثم يكون المزيد من الرقص. بعد ذلك، سيصطاد الرجال بلوشاً أبيض. وسيستعمل الريش في طقس آخر. في اليوم التالي سيعقدون محكمة ويوزعون العقوبات. وستتم تسمية أبناء وبنات الثالثة عشرة، ويأكل الجميع الذرة الخضراء رمز الربيع.»

بدا جوناس يستوعب كل شيء. «كم مرة حضرت هذا الطقس؟»

«حضرته مرة واحدة عندما كنت طفلة.»

كان غارقاً في أفكاره. «ماذا يفعل الأزواج الجدد؟»

«بعد الطعام، يفترقون كسائر أفراد القبيلة.»

«وكيف يلتقون ثانية؟»

«خلال الأيام القادمة يحاولون اللقاء. ربما يمشون في

الغابة، أو يختبئون خلف الشجيرات ليتبادل كل اثنين الكلام.»

«لا قُبل؟»

حاولت الحفاظ على هدوء صوتها. «لا. ليست هذه طريقتهم.»

«ما هي طريقتهم؟»

«لا أعلم تماماً.» وراحت تجمع طبقيهما.

«لا تعلمين ماذا جرى بين أبيك وأمك؟»

احمرت. «طبعاً، لكنهما كانا متزوجين.»

«إذن لا ينام العشاق الشبان المكوسوكيون مع من اختاروا حتى ليلة الزفاف؟»

«ليس إذا كانوا تقليديين.»

«أأنت تقليدية؟»

«أظن ذلك. هذه أمور معائلة، أعلم ذلك.»

«الآن أملك بعض الأجوبة على أسئلة حيّرتني.» وطال الصمت.

تلفتت كورتني ولاحظت، أن معظم العشاق قد غادروا. لقد شغلها جوناس عن الواقع. «إذا أردت أن تعلم ماذا يفعل الرجال أثناء الصوم، إسأل بوب ويلي.»

«الحقيقة، سأنضم إلى دوريات الشرطة، الناشطة حول المنطقة، في حال قرر أحد شذاذ الآفاق من الغرباء أن يثير الشغب. لكنني سأعود في الصباح الباكر.»

لم تفاجأ. عمله كمدير يحتم عليه الاهتمام بأمن ورفاهية القبيلة. برغم أن شرطة القبيلة ستكون على تمام الأهبة، لكن جوناس يقدر أن يساعد. كان يتحمل مسؤوليته بجدية.

www.liilas.com

«يجب أن أذهب أنا أيضاً. إذا أردت أجوبة أخرى صباحاً، سأكون في الجوار، أساعد في التحضيرات لطقوس الطبيب.»

وقف جوناس على قدميه، وراح يساعدها، فيما كان صحناهما يهتزان بين يديها. «هل ستمضين الليلة مع روزا؟»

«لا. سأذهب إلى بيتي، وأدخل إلى الحاسوب رواية أحداث اليوم، ثم انسخ الأغاني.»

«ليتك لا تذهبين بمفردك.»

«بحق السماء، يا جوناس، لست طفلة.»

«هذا ما يقلقني. تخلّصي من هذين الطبقين، وسأواكبك إلى بيتك، وأتأكد من سلامتك.»

كادت توقع الصحنين. «لا داعي لذلك، ولا أريد ابعادك عن مهامك.» استدارت وكادت تركض إلى الكوخ. أعطت الصحنين لروزا، التي كانت تثرثر مع باقي النسوة، وهن ينظفن الكوخ.

«روزا؟ أنا ذاهبة إلى بيتي، لكنني سآتي إلى هنا في السابعة صباحاً.» أسرعت، كي لا تدخل في جدل مع روزا.

عندما تركت أرض الاحتفال مع أشرطتها وعدة التسجيل، وجدت جوناس في شاحنته، المتوقفة قرب شاحنتها الصغيرة. كان قد أضاء مصابيح سيارته كي ينير دربها. صعدت إلى شاحنتها وأدارت المحرك. كانت مسرورة بينها وبين نفسها، إنها لن تقود عبر الطريق الموحل في هذا الليل بمفردها.

بعد دقائق وصلت إلى البيت، وكانت مستعدة لتوديع

جوناس. لكنه خرج من آليته، ولحق بها إلى داخل البيت، وتفحص الغرف والمطبخ.

«ما الأمر، يا جوناس؟ لِمَ أنت حَذِر؟»

حك ظاهر رقبته مفكراً. «بوجود الجميع عند أرض الاحتفال، ستكونين في ورطة إذا قرر شذاذ الآفاق أن يزورا المحمية.»

لم تكن قد فكرت في هذا الاحتمال إلى الآن، لكن ما قاله منطقي. حصلت بعض المشكلات في الأشهر الخالية؛ وعرفت عنها من روزا. «كما ترى، لا يوجد أحد هنا. عندما تغادر سأقفل الباب وأحكم اغلاق النوافذ.»

بدا وجهه متجهماً. «لا يعجبني الأمر. الأفضل أن أبقى لبعض الوقت.»

وضعت كورتني أغراضها على الطاولة، وغرقت بهدوء في الصوفا. لم تتوقع استقباله في بيتها مرة أخرى. لقد خالف كل ما جرى منذ الصباح توقعاتها. «هل تتوقع متاعب الليلة؟»

«ناقشنا أنا وبوب هذه الإمكانية. سأتمشى إلى العيادة والمطعم، ثم أعود. لا تفتحي الباب لغيري.»

«لن أفعل.» تمتمت، وأحست بالخوف عليه. تعلم أنه يستطيع مواجهة أي وضع، لكن في حالة هجوم عصابة فإنه سيحتاج للمساعدة. «كن على حذر.» همست.

«يبدو وكأنك مهتمة.» قال ساخراً: «سأعود.» خرج من الباب وأقفلته كورتني خلفه. لن تنام قبل أن يعود سالماً، فدخلت إلى المطبخ وشربت مرطّباً.

ثم جلست إلى حاسوبها لوقت قصير، وهي تحاول أن

www.liilas.com

تدخل روايتها لأحداث اليوم. لكنها لم تقدر أن تركز، فجوناس قد يعود في أي دقيقة. والأسوأ هو أنه قد لا يعود... لأنه قد يواجه حدثاً غير سار أو حدثاً خطيراً.

بعد نصف ساعة من زرع غرفة الجلوس ذهاباً وإياباً، بدأت تخاف، وقررت أنه من الأفضل أن تخرج، وتبحث عنه خارجاً. إمكانية إصابته دفعتها أخيراً إلى التحرك.

عندما خرجت من الباب الأمامي لمحته. «ظننت أنني قلت لك بأن تظلي في الداخل!»

«طال غيابك فقلقت.» قالت، فيما كان يقودها إلى الداخل ويقفل الباب.

بدا الاستمتاع على عينيه الخضراوين. «وماذا كنت فعلت لو وجدتني ملقى في كومة من القذارة؟»

ارتجفت تلقائياً. «لا أعلم. لم أفكر بهذا الاحتمال.»

أمال رأسه قليلاً. «لا يبدو هذا من طباعك.» لم يخف عليها هذا التلميح.

«هل تريد شراباً؟»

«لا.»

بدا أن طبعه قد تغير. لم تعرفه هكذا. «والآن بعد أن علمت أن كل شيء على ما يرام، هل ستذهب؟»

«هل تطلبين مني الرحيل؟»

«بالطبع لا.»

«حسن، لأنني لا أنوي المغادرة.»

تمسكت بأقرب كرسي. «هل أثار ريبتك أي شيء في الخارج؟»

«لا. لكن الوقت لا يزال باكراً.»

«إن لم يكن هناك ما أقوم به من أجلك...»

«لم أقل هذا.» تمتم بصوت أبح.

جف حلقها. «أظن...»

وقبل أن تتم كلامها اقترب منها وأمسك رأسها بيديه. ببطء، وبعناد، اقترب فمه من وجهها وتعطل كل منطق، لم يعد هناك سوى جوناس، وضغط ذراعه على جسدها. كانت تريد... هذا بل تحتاجه... فلم تحاول منع ما يحدث. لقد أوقد جوناس فيها ناراً راحت تخرج عن السيطرة.

شد جسدها إلى جسده، مقولباً كل خط وثنية فيه على طوله الفارع. يا لها من متعة. راحت تداعب صدره وكتفيه، كما كانت تفعل لآلاف المرات في أحلامها؛ كما كانت ترغب في وقت سابق عندما رقصت له.

«هل تعلمين ما الذي تفعلينه بي؟» همس، وفمه على رقبتها حيث فاح عطرها في أعنب ما يكون. «أريدك بقوة...»

قربه منها أثار رغبتها به. لكن في تلك الليلة بدا غزله في قوة، حطمت كل الموانع. «أحببني، يا جوناس.» ترجته، وراحت تغطي وجهه باللثم، وذابت فيه ليسمع خفقات قلبها.

هذه الكلمات حطمت آخر حواجز التحفظ، فيما طوقت رقبته الصلبة بذراعيها وجذبت فمه إلى وجهها مرة ثانية. «ابق معي الليلة.» توسلت، وراحت تداعب شعره. ارتعش من لمستها، مشعراً إياها بانوثتها وتأثيرها عليه.

«هل تعنين ما تقولين؟» تردد صوته فيها، فيما كان فمه يداعب عينيها، ووجهها، وشعرها، مما حرك دمها كالشراب الأحمر في عروقها.

www.liilas.com

«ما أعرفه هو ما أحسه الآن.» اعترفت. «لأنني معك. اردت هذا منذ زمن.» ارتجف صوتها بالعاطفة. قبلت اليد التي تلمس خدها، كأنها لا يمكن أن تكتفي منه.

«ماذا لو تمادينا؟» تمتم وفمه على رقبتها، ثم أنزل يديه على ذراعيها، وأبعدها عنه قليلاً. «قد تكون العواقب وخيمة.»

استلزمت كلماته دهراً كي تصل إلى وعيها، وما أن وصلت حتى اجتاحتها رعشة باردة، فاخرجت نفسها من بين يديه طالما تستطيع. يجب أن تشكره لأنه حافظ على سيطرته، فيما فقدت هي كل سيطرة. ما أحست به هو الخزي والاعياء، لأنه هو الذي وضع حداً لما كان يجري.

لقد ترك الكلمة الأخيرة لها، لكنها الكلمة التي أرادها. كانت واثقة. وبما كان لا يزال يرغب بها، لكن شيئاً قد انتهى. شيئاً غير محسوس قد غير جوناس. لن يقدرا على اعادة دولاب الزمن إلى الوراء.

«كورتني؟» أمسكها، ونظر في وجهها باحثاً عن شيء ما. دخل حزن إلى عينيه، عندما ابتعدت كلياً عنه.

اصطنعت ابتسامة. «ليس من المستحسن أن يحدث ذلك قبل السفر.

«أتعلم.» قالت بصوت متلعثم: «من المحرج أن أشكرك دائماً. لكنني اطمئنك أن أيام انقاذك أياي من المآزق قد انتهى.»

«عم تتكلمين؟» سأل بغضب. تقدم ناحيتها فتراجعت.

«أريدك أن ترحل. إن احتجت لمترجم ستس روزا بمساعدتك. إنها لحدى أكبر المعجبات بك.»

امتقع وجه جوناس في الضوء الخافت. «تعلمين في قرارة نفسك أنك لا تريدين أن أرحل. أثرت موضوع التمادي بدافع اهتمامي بك.»

«قمت بعمل خير هذه الليلة. أرحل أرجوك.»

اجتاحت وجهه علائم التجهم. «إن حصل أي شيء، لن يكون هناك من يساعدك.»

«لست حارسي، يا جوناس.»

«أنت توضحين هذا منذ فترة.» كان الجو مثقلاً بالتوتر. «لقد أقنعتني أخيراً.» وخرج من بابها مسرعاً.

إذا كانت كورتني قد ظنت أن أملها لن يزداد سوءاً، فلقد أخطأت. دون وعي جلست على أقرب كرسي، ولم تقدر أن تتحرك، إلى أن سمعت أول زقزقة للعصافير تعلن انبلاج الصباح. عندها أطلق جسدها الألم المكبوت، فراحت تبكي لمدة طويلة جداً، فلم تترك بيتها لمتابعة الاحتفالات حتى بعد ظهر ذلك اليوم.

بحثت عن جوناس بين الرجال الذين يلعبون الكرة، لكنها لم تجده. فنظرت ناحية أكواخ الطهي، فشاهدت روزا تحضر اللحم.

«ماذا حدث لك؟» كان سؤال روزا آخر ما تقدر كورتني على تحمله.

«لا. ظننت أنك قمت بذلك.»

مزق الجزع قلبها. «هل رأيته؟»

«لا. هل أنتما مجنونان ببعضكما لمرة ثانية؟»

«روزا.» صاحت كورتني بغضب. «أريد أن أعلم إن رآه أحد. عندما غادر أمس أراد القيام بدورية، لكن من

www.liilas.com

المفروض أن يرجع لأنه أراد أن يشاهد رقصة شارلي.»

«يقدر أن يهتم بنفسه.»

«أعلم، لكنني سأشعر بالاطمئنان إن علمت أن أحداً رآه. هل تقدرين أن تحدّثي بوب ويلي.»

لم تقل روزا شيئاً لدقيقة. «سأرى ما يمكنني فعله. أكملي شوي اللحم وساهدئ الزعيم.» أحست كورتني أن روزا قلقة، برغم أنها لا تظهر ذلك.

اخترقت الجو رائحة اللحم الشهية، لكن كورتني لم تحس بأي قابلية للأكل. وحاولت البحث بعينيها عن شعره الأسود وقامته الممشوقة بين الرجال.

عندما لمحت وجه روزا المتجهم، أسرعت إليها. «ماذا علمت؟»

«لن يكمل جوناس الاحتفالات.»

«لماذا؟ ماذا حصل؟» صاحت بانفعال.

«قال لبوب ويلي إن أباه أصيب بنوبة قلبية.»

«أوه لا!» مسكين جوناس. أن يحصل هذا بعد مغادرته الشركة، وبعد الخلاف بينهما، هو أسوأ ما يمكن أن يحدث. ربما جوناس يلوم نفسه على ما حصل.

بعد ما حدث أمس، لن يتقبل جوناس سؤالها عن أبيه، ولا تقديم المؤاساة. لن تزيد من مشكلاتهما بمحاولة الاتصال به. لن يتحمل تدخلها في أموره، ولن يرد على أي رسالة تتركها له.

لكنها ستتصل بالمؤسسة لتستعلم.

«روزا، علي أن أذهب إلى ميامي. لا أعلم متى أعود. إن عرّفتك على معدّاتي، هل تسجّلين أغاني الليلة وتنتبهين لأغراضي ريثما أعود؟»

«سأفعل. اذهبي إلى جوناس. هو يحتاجك.» لأول مرة بدت روزا موافقة كلياً، مما أظهر اهتمامها لأمر جوناس. كما عكس جهلها بتردي العلاقة بين جوناس وكورتني.

حتى لو قامت كورتني باخبار روزا كل شيء، فإن روزا ستقول عنها عنيدة كأمها. شاهدت روزا رقص كورتني، ولن يقنعها شيء، إن ما حدث لم يكن إلا تمويهاً. هنا تكمن المشكلة. كورتني في قرارة نفسها كانت تعتقد أن ما حدث ليس تمويهاً ولا تريد له أن يتغير.

www.liilas.com

الفصل التاسع

«كورتني؟ أعلم أنك متعبة، لكنني لم أجد الفرصة لأشكرك على العيّنات النباتية التي جمعتها. إنها رائعة!»

كانت حفلة ليندا قد انتهت والجميع قد غادروا. لقد استخدمت كورتني كل قدرتها في التمثيل على الأصدقاء، لكنها لم تعد قادرة على الاستمرار. تمنت لو يغادر برايس تويرز. آخر الموجودين.

«أتمنى أن أكون أحضرت شيئاً قد أثار اهتمامك.»

كان أستاذاً بكل معنى الكلمة، بذقنه، وشاربيه، ونظارته ذات الإطار القاتم. «أحضرت عدة أنواع لم أعتد عليها في أي مكان آخر. عندما تذهبين في المرة القادمة هل أقدر أن آتي؟»

ابتسمت كورتني. «عندما أحضر لسفرتي القادمة سأتصل بك، لكنني أظن أن ذلك لن يكون قبل عام»

«سمعت أنك حصلت على منحتك. تهانينا! ستصيرين مشهورة، فيما أظل أعاني مع تلاميذي.»

«لا يصبح المرء مشهوراً في مجالي، يا برايس. يصير فقط عجوزاً ومعقّداً.»

نظر إليها بتمعن. «حسناً، تتعقّدين بالطريقة الملائمة. هل نتعشى معاً قبل رحيلك إلى ميامي.»

«لا أقدر.» قالت بشكل يوحي أنها صادقة. «سأسافر إلى

زائير في الصباح لأزور أبي، ومن هناك سأطير إلى أوكلاهوما مباشرة. كنت أتمنى.»

«عذراً، برايس.» قاطعتهما ليندا: «يريد أحدهم كورتني على الهاتف.» راح قلبها يطرق. ربما كان جوناس. لكن هزة بسيطة من رأس ليندا فهمتها أنها لم تعرف من المتكلم.

«عذراً، برايس.» قالت كورتني بهدوء، متسائلة عمن يكون المتكلم. قررت أن تتحدث من غرفة النوم التي تتشاركها مع ليندا لليلتين. جلست على أحد السريرين، وتناولت سماعة الهاتف. «ألو؟»

«أنت كورتني بلايك؟» كان الصوت نسائياً ومألوفاً.

«نعم.» قالت ببطء، ثم عرفت الصوت. «السيدة باين؟»

«نعم. قالت لي سيلفيا إنني قد أجدك على هذا الرقم. إن كان الوقت غير مناسب أتصل في ما بعد.»

«لا بأس. كيف حالك؟ والسيد باين؟ آسفة لمرضه. هل هو بخير؟»

«كانت النوبة طفيفة جداً، وهو الآن في البيت بعد أن غادر المستشفى. سيحيا حياة طويلة، وممتعة، إذا اتبع تعليمات الطبيب. يريدك أن تعلمي أنه تسلم الأزهار. إنها جميلة، وتعجبنا كلنا.»

«أنا سعيدة لأنه عرف بطريقة ما أنني أهتم به. إنه رئيس رائع في العمل.»

«وهو يبادلك الشعور نفسه، يا عزيزتي. هل صحيح أنك ستغادرين فلوريدا من أجل القيام بأبحاث في مكان آخر؟»

«نعم. إلى أوكلاهوما.»

www.liilas.com

«قال جوناس شيئاً عن هذا الموضوع منذ عدة أسابيع. كم ستغيبين؟»

«ثمانية عشر شهراً على الأقل، ربما أكثر.»

مرّ صمت طويل. «لم أعلم أنك ستغيبين لهذه المدة الطويلة. ربما نستقبلك للعشاء عندنا قبل سفرك. هل هذا ممكن؟»

«برغم روعة الفكرة، أخشى أنني لن أقدر.» كانت تتلعثم من عواطفها التي تحركت. «سأسافر إلى زائير صباحاً ولن أعود.»

«زائير؟ أبوك يعيش هناك، صحيح؟ جميل أن تزوريه قبل أن تبدئي مشروعاً آخر.»

«نعم. وأنا متشوقة لهذا اللقاء»

«أنا أكيدة، كما أؤكد لك أسفي لعدم علمي أبكر من الآن. سيخيب أمل سايلاس أيضاً. لقد استمتع كلانا بوجودك عندما أحضرك جوناس.»

لم تعد كورتني قادرة على المضي في هذا الحوار. الحديث مع أمه أعاده بقوة إلى خيالها. ومن حديث السيدة باين يبدو أن جوناس لم يخبر أمه عن مشكلاته مع كورتني.

«سرني التعرف إليكما أيضاً. بلّغي تحياتي للسيد باين.»

«طبعاً. هل سيوصلك جوناس إلى المطار؟»

جعل السؤال المفاجىء كورتني تكتم أنفاسها. «الحقيقة ستوصلني صديقتي الفضلى ليندا. جوناس مشغول ليلاً نهاراً في وظيفته الجديدة، ولن يكون قادراً.» قالت بارتجال.

وطال الصمت مجدداً. «يجب تلك الوظيفة. لقد وجد

جوناس عملاً يحبه لخيبة أمل أبيه. من كان يحلم بهذا؟»

«لا أظن أنني أفهم.» تمتمت كورتني. وهي تواقة لتعلم ما عند السيدة باين.

«أنا أيضاً لم أفهم في البداية.» قالت بضحكة خافتة: «عندما أخبر أباه عن عزمه على ترك المؤسسة ليصير مديراً للمحمية، ظنه يمزح. ثم علمنا أنه نال المنصب.»

أخذت نفساً عميقاً. «أتظنين أن ما قام به سيكتب له الدوام؟»

«طبعاً.»

«ظننت أنه يرغب بدخول السياسة.»

«لا طبعاً، ربما منذ سنوات خطرت له الفكرة لأن أباه كان يصر على ذلك. لكن في ما بعد جذبته القوانين المتعلقة بالهنود، ولم يعد يعير الفكرة أيّ اهتمام.»

انزلقت عن السرير، كأنها في غيبوبة. «لكن السيد باين تحدث كثيراً عن الأمر.»

«أعلم.» ضحكت من قلبها. «لطالما شغله العمل بالسياسة وكان يتمنى أن يحذُ وجوناس حذوه أيضاً. لكن الأمور لم تتطور هكذا. خصوصاً بعد نوبته القلبية راح سايلاس يعي أن لجوناس حياة خاصة به. أعلم أن ابني سيغرق نفسه في متاعب المحمية حتى آخر يوم في حياته. وسنكون محظوظين لو زارنا في العطل. لا بد أنك تعرفينه أكثر منا.»

كل ما تبقى من حديث السيدة باين، لم تعد كورتني قادرة على سماعه. لقد وقعت سماعة الهاتف على الأرض. أحست بالإعياء، فأمسكت السماعة وقرّبتها من أذنها من جديد، لكن

www.liilas.com

قلبها كان يخفق بشدة فلم تعد قادرة على التفكير، ولا حتى الاستماع.

«لم أقصد أن أتحدث عن جوناس. لقد أعقتك، فيما أنت تريدين التحضير للسفر. لا تنسينا. زورينا، عندما تأتين إلى ميامي المرة القادمة. نحب أن نراك من جديد.»

«شكراً، سيدة باين.» تلفظت بالكلمات. «سأفعل. إلى اللقاء.»

«كورتني؟» نادتها ليندا: «هل يمكنك أن تأتي وتودعي برايس؟» دخلت ليندا الغرفة، لكنها توقفت. «كورتني؟» صاحت: «يبدو كأنك رأيت شبحاً. ما الأمر؟»

«لا أقدر أن أواجه برايس الآن. قولي له أي شيء.»

زاد القلق من زرقة عيني ليندا. «لا بد أن الأمر متعلق بجوناس. هل حصل له شيء؟ تكلمي!»

«أوه، ليندا.» هزت رأسها. «لقد قمت بما لا يُغتفر.»

«انتظري ريثما أتخلص من برايس.» عادت ليندا بعد دقائق، لكن كورتني لم ترد أن تثقل كاهل صديقتها أكثر مما فعلت.

«أنا بخير. الأفضل أن أساعدك في ترتيب البيت. سأغسل الأطباق وأنت تجففينها.»

«لحظة!» قالت ليندا. «إن كنت تظنين أنني سأدع ضيفة الشرف تعمل بعد حفلة وداعها، فأنت على خطأ.»

«أرجوك، يا ليندا.» رجتها كورتني، «إن لم أشغل نفسي سأجن.»

تبادلتا نظرة صامتة طويلة، ومليئة بالتفهم. «إن أردت

الكلام، أخبريني.» همست ليندا. دخلتا غرفة الطعام لجمع الأطباق.

مرّ ما تبقى من الليل بسرعة. لقد وضعت كورتني شاحنتها في مرآب مع أثاثها. ستطلب أشياءها عندما تستقر في أوكلاهوما.

في الصباح التالي لم يعد هناك ما تقومان به، سوى وضع الحقائب في صندوق سيارة ليندا والمغادرة إلى المطار. خلال الرحلة انهارت، وأخبرت صديقتها كل شيء.

«هل تريدين رأيي؟» قالت ليندا، وهي تنظر إليها، فيما كانتا بانتظار إشارة المرور. «أرى أن تضعي كل مشاريعك على الرف وتسعي وراءه.»

حركت كورتني رأسها بشدة. «لا تعرفين جوناس كما أعرفه، يا ليندا. لن يسامحني على ما فعلت، وعلى ظنوني وشكوكي به. لقد انتهينا.» ارتعشت.

«لا أظن.» أصرت ليندا بعناد.

«أنا أكيدة.»

«لكن ألم تكن تلك هي المشكلة منذ الوقت؟» سألت، وهي تنظر إلى كورتني، بحاجبين مرفوعين. «دائماً تفترضين شيئاً ويثبت جوناس خطأ افتراضك. أظنك خائفة.»

تلوّت كورتني بانزعاج. «كيف؟»

«لا بد أن ما حدث بين والديك أثّر فيك دون أن تعي ذلك. تحسين في أعماقك أنك ستنتهين وحيدة كأمك، لأنك تظنين أنك لن تنجحي مع جوناس، مثلما حدث لأبويك.»

حملقت كورتني من شباك السيارة دون أن ترى شيئاً. «أنت محقة، يا ليندا. أنا خائفة.»

www.liilas.com

«لكن الخوف الأعظم، سيكون في تمضية ما تبقى من حياتك من دون جوناس، وفي اكتشافك لاحقاً أنه كان بإمكانك تغيير الوضع لولا خوفك وكبرياؤك.»

«أمي كانت تملك كبرياء أيضاً. يقول بوب ويلي إنني مثلها. يقول إنها كانت تعاني جنون الإضطهاد، وأنا مثلها.»

«صحيح. لكن أمك كانت شجاعة. لقد كافحت في سبيل من تحب برغم العوائق. أنت لا تواجهين الوضع نفسه. فكري.»

كانت تفكر. هذا ما كانت تفعله منذ تحدثت مع والدة جوناس.

«لا أعلم كيف كان وضعي سيكون لولا صداقتنا، يا ليندا. وسأفكر بالموضوع عندما أكون عند أبي.»

«هذا حسن. وعندما تحصلين على قرار اتصلي بي.»

«سأتصل في كل الأحوال.»

في بادىء الأمر كانت كورتني قد قررت البقاء عند أبيها لثلاثة أسابيع، لكن بعد عشرة أيام حجزت تذكرة إلى ميامي، بعد أن استشارت أباها، الذي شجعها على تقبل نصيحة ليندا. أحست أنها تريد رؤية جوناس مجدداً. كما قال أبوها، قد يرفض جوناس رؤيتها لكن عليها المحاولة لتتأكد.

أخذت سيارة أجرة إلى بيت جوناس فور خروجها من المطار. برغم تعبها من الرحلة، خشيت أن تخونها شجاعتها إذا لم تقابله على الفور. كانت صبيحة يوم أحد

فتوقعت أن تفاجئه في البيت، برغم جهلها كيفية قضائه وقت الفراغ منذ تسلم وظيفة مدير رد مانغروف.

دفعت للسائق، وهرعت على الدرج الأمامي لتقرع الجرس. كان دفء الصباح لذيذاً فخلعت سترتها من على فستانها الأصفر الليموني، الذي ارتدته في المطار.

فتحت دليا الباب وحيّت كورتني بدفء، بعد أن تجاوزت المفاجأة. بعد قليل أخبرتها أن جوناس ليس في البيت.

«هل تعلمين أين يكون اليوم؟»

«في المحمية. كأنه يسكن هناك الآن.»

«حتى أيام الآحاد؟» سألت مشكّكة.

«لا فرق عنده. منذ تسلم وظيفته هناك، لم يعد يأتي للبيت إلا لتسلم البريد وتغيير ثيابه.»

مررت يدها بسرعة في شعرها. «كنت أتمنى أن أراه اليوم.»

«يمكنك الدخول واستعمال الهاتف. قد تعلم سكرتيرته أين هو. اتصلي بها في منزلها أو اتصلي بالمحمية.»

«هذا رائع.»

«ادخلي مكتبته. تجدين جميع أرقام الهاتف التي قد تحتاجين على مكتبه. أثناء ذلك سأحضر لك عصير الليمون.»

شكرت كورتني مدبرة المنزل ودخلت مكتبته الخاصة. مكتبته تساوي ثروة، لكن طرازها والأرضية اللماعة، والسجاد الجميل تعكس البساطة والقوة اللتين في شخصيته.

وجدت تغييراً واحداً عن آخر مرة دخلت فيها المكتبة. نظرت إلى لوحة فوق الموقدة، كأنها كانت تنظر إلى مرآة. لكنها لم تكن تشبهها تماماً. قرأت على لوحة برونزية صغيرة في أسفل الإطار ما يلي: الأميرة سوكلاتيكي، أميرة الثلايدس.

غطى السديم عينيها. لا بد أن جوناس طلب من أحد الفنانين رسم لوحة، منقولة عن الصورة التي التقطها لها خلال رحلتهما في الكانو.

هل نظرة الهوى في عيني الأميرة من خيال الرسام، أم أن حب جوناس يظهر من شفافية عينيها بشكل لا يمكن اخفاؤه؟

بدت الأميرة سعيدة. جعل ضوء الشمس المنعكس على صفحة الماء، وعلى شعرها الكستنائي الطويل، وعلى جسدها، وعلى ثوبها الميكوسوكي، جعل اللوحة تشع بالحياة. كان التأثير يحبس الأنفاس.

«السوء الحظ تصحت شعرك، لكنه سينمو مجدداً.» قالت دليا بتودد، وهي تحضر لها الشراب، ووقفت تتأمل اللوحة معها. «جوناس يعشق هذه اللوحة. لا بد أنك ترينها لأول مرة.»

«نعم.» هذا ما قدرت أن تقوله، والغصة في حلقها. شربت عصير الليمون مجاملة، لكن أفكارها كانت تسرح بعيداً.

«دليا، إن كان جوناس في المحمية سأجده. شكراً لكل شيء. سأطلب سيارة أجرة وأذهب.»

بعد دقائق، حضرت سيارة الأجرة أمام المنزل.

«ماذا أقول لجوناس إن اتصل أو أتى إلى البيت؟»

كانت الإثارة قد اربكت تنفسها. «لا تقولي له شيئاً. أريد أن أفاجئه.»

«سيتفاجأ حقاً. المفروض أنك في زانثير؟»

«نعم.» قالت بالتفاتة من على كتفها، قبل أن تدخل سيارة الأجرة، وتجلس على المقعد الخلفي.

عند الظهر، كانت كورتني قد أحضرت شاحنتها الصغيرة وبعض الأغراض من حيث كانت قد خباتها، وراحت تقود على التاميامي تراييل باتجاه رد مانغروف.

رفعت روزا رأسها عندما دخلت كورتني، وقالت: «آن أوان عودتك. ما الذي أخرك؟»

نظرت كورتني إلى صديقة أمها. «أنا ابنة أمي أتذكرين؟ الكل يقولون إنها عنيدة. لقد ورثت عنها هذه الصفة.»

«حسناً، أظن أن الأمر ليس بهذا السوء. عندما يعود شعرك لسابق عهده، لن يتذكر أحد ما فعلت.»

بدأت كورتني تضحك؛ لم تستطع ألا تفعل. لكن الضحكة توقفت، عندما قالت روزا بفظاظة: «إنه ليس هنا.»

لم يكن من داع لسؤالها من تقصد. «هل تعلمين مكانه؟»

«لا، لكنني أظن أن بوب ويلي يعلم.»

«أو تعلمين أين بوب؟»

«ربما. المشكلة، أن بوب ويلي ليس مسروراً منك.»

«ومتى كان مسروراً مني؟»

«يقول إنك تسببين المتاعب لجوناس.»

«أتوافقينه الرأي؟» لم تستطع كورتني ألا تسأل.

«هل ستسببين المزيد من المتاعب؟»

www.liilas.com

«ما رأيك؟» نظرت إلى روزا باستياء. «هل ستتصرفين كأم لي. وتعلنين زواجي لبوب؟»

أضاءت ابتسامة نادرة وجه روزا. «علي أن أحدث الزعيم. اذهبي إلى الغرفة الخلفية واستلقي. ألم تطيري عبر نصف الدنيا لتوك؟»

«بلى.»

«كيف حال أبوك؟»

«حسن.»

«أتتناولين بعضاً من خبز اليقطين؟ إنه خارج لتوه من الفرن.»

«ظننت أنك لن تقدميه لي.»

«هه!»

لم تدر كورتني إن كانت روزا قد تعمدت تركها تنام لباقي اليوم، أم إنها لم تملك أي خبر لها حتى المساء. كل ما تعرفه أنها استيقظت بعيد السابعة، وهي تشعر بالانزعاج من تغير التوقيت.

وقفت روزا بالباب. «حسن. أنت مستيقظة.»

نهضت كورتني على قدميها مستيقظة تماماً. «هل تكلمت مع بوب أم لم تجديه؟»

«وجدته. ذهب جوناس للصيد.»

«أين؟»

«لم يقل.»

«ألم تخبريه عن الزواج؟»

«لم أكن مضطرة. رآك شارلي تقودين شاحنتك إلى هنا.» يبدو أن شارلي يعلم كل شيء.

«روزا.» قالت بصوت خفيض: «هذا جدّي. علي أن أجد جوناس وأكلمه. ألم يعطك بوب أي تلميح؟»

«لا. قال إن جوناس في إجازة لبضعة أيام وذهب للصيد.»

«أتصدقين بوب؟»

«وأنت؟»

بعد صمت قليل أقرّت أنها تصدقه. «سأحاول إيجاده في الصباح.»

«أحضر اسيياهولو الكانو خاصتك. إنه قرب الضفة. ابقي هنا الليلة.»

«شكراً، روزا. أفهم لم كانت والدتي تعتبرك صديقتها.»

أسرعت كورتني بعد ذلك إلى الكانو. أرادت وضع أغراضها قبل حلول الظلام.

راحت تجذف عند الصباح، فيما كانت الشمس تظهر في الأفق. كانت السماء خالية من الغيوم والحرارة ستزداد قبل حلول الظهر.

قد يكون جوناس في أي مكان، لكن أحساسها أخبرها أنها ستجده قرب كوخ مهجور، حيث يستطيع التخييم في الليل وتحضير وجبته. إن أراد الوحدة، لن يصطاد حيث التقط سمكة الفرخ، لأنه قريب للهضبة حيث عائلة أمها. لن يخيم أيضاً قرب البحيرة، لكثرة التماسيح.

كان هناك مكان آخر محتمل، وهو خليج صغير توجد فيه الأسماك بكثرة. وقد مرت قربه عندما قصدا زيارة جدتها. جذفت إلى ذلك المكان، وهي تتخيل أنها ستصله بعد الغداء بقليل.

www.liilas.com

كانت الغلايدس مليئة بالأزهار البرية، التي كانت لا تزال براعم، عندما قصدا المكان هي وجوناس من قبل. لم تضايقها حرارة الجو. كان قلبها وعقلها مشغولين به. لم تفكر بإمكانية عدم العثور عليه.

عندما وصلت إلى حيث تكثر طيور البلشون، حولت مسارها عبر مجرى ضيق لتصل إلى ما وراء الهضبة، دون أن يراها أحد. هكذا، لن يراها جوناس قبل أن تستعد لكشف نفسها.

كان الكانو يطفو بهدوء عبر الحشائش المستنقعية، فخرجت منه كي تخلصه من الأعشاب الكثيفة. في نعلها الجلدي كانت قادرة على التحرك ببراعة كالحيوانات، التي كانت تعيش في الغلايدس.

انطلقت عبر الغابة بألوانها الزاهية، ورولنحها الزكية. كأنها كانت تعبر عالماً بدائياً، مليئاً بالأشجار الجبارة، حيث النباتات المتسلقة والطحالب. كانت تحب نباتات الخنشار التي تشكل غابات صغيرة على جذوع الأشجار. أخذت نفساً عميقاً. بدا الهواء راكداً. هل أتى جوناس إلى هنا، أم أن خيالها رسم لها أوهاماً؟

لما رأت قماشاً مشمعاً يتدلى من سقف أحد الأكواخ، علمت أنها وجدته. أمالت رأسها وأصغت لحركاته، لكنها لم تسمع سوى تغريد الطيور وطنين الحشرات.

ربما يصطاد. اقتربت أكثر ونظرت إلى الشاطىء علها تجد قاربه الجلدي. ولما لم تجده شعرت بالارتياح. من دون إضاعة ثانية واحدة، هرعت إلى الكانو وأحضرت عدتها، ووضعتها خلف الكوخ. ربما لن يعود قبل ساعات، لكنها لن تخاطر. المهم أن تكون على استعداد عند حلول المساء.

كان النهار يمضي ببطء. فاحست بالاعياء من توترها. جوناس بارع في الغابات، ولا يعود في ساعة مبكرة. هذا هو قانون الغلايدس غير المكتوب.

ما إن اسندت رأسها على أغراضها، حتى سمعت صوت مجذافه، فتقدمت على ركبتيها لتراه من خلال أوراق الشجر.

كان يرتدي بنطالاً قصيراً لونه أبيض، وسيراً جلدياً. جسده البرونزي الرائع كان يلمع، مما زاد في جمال تناسقه. قفز من قاربه إلى الماء، واختفى تحت سطحه. ثم مشى إلى الشاطىء بشعر مشعث، ومبلول بشكل جذاب.

حمل صيده من القارب إلى الكوخ. ركزت كورتني عينيها على وجهه، وراحت تداعب بنظرها خطوطه وزواياه. في عينيه اخضرار رائع، كاد جمالهما يجعلها تتقدم وتعلن عن نفسها، لكن الوقت لم يكن قد حان بعد.

رأته يرش مضاد الحشرات، ثم يلبس قميصاً أبيض. نظف السمك، وبعد قليل كان بإمكانها أن تشم رائحة السمك الذي يئز في المقلى.

حضر لنفسه صحناً وراح يأكل. بدل أن يجلس على كرسي صغير أحضره معه، جلس على الأرض واسند ظهره على عمود الكوخ. وراح يتأمل في الأفق كأنه يفكر. لم يود مشغول الفكر بطعامه.

نظرت كورتني إلى السماء. الشمس ستغيب خلف الأفق قريباً. آن أوان التحرك. تقدمت عبر الأعشاب العالية بقلب خافق، وهي تحمل أطراف تنورتها الطويلة، لئلا تعلق بالعلّيق.

استدارت كي تبدو كأنها تظهر من الماء حيث ترك قاربه، ظهرت للعلن، وهي خائفة وغير واثقة.

www.liilas.com

الفصل العاشر

«يا الله» سمعته يهمس، فيما كانت تقترب. توقفت على بعد مسافة قصيرة جداً. بدا وجهه في لونه الكامل. لم تره في حياتها مباغتاً، بل ضعيفاً.

كانت يداه تمسكان بالصحن والشوكة. لم يتحرك من مكانه، كأنه تجمد.

«لم أقصد إخافتك.» قالت بنغومة.

ربما سماعه لصوتها، جعله يتحرك. ألقى الصحن والشوكة على أرض الكوخ، ووقف ويداه على خصره.

«أنت لا تقصدين الكثير من الأمور.» قال أخيراً بعدوانية جرحتها. «لن أسألك عن سبب قدومك، لكن امنحيني عشر دقائق لأختفي.»

«جوناس...» صرخت. «جئت بحثاً عنك.»

«لا أفهم السبب، ولا أريد أن أعلم. إن لم أوضح لك بعد، سأقولها بصراحة. أريد أن أكون بمفردي.»

بحركة عنيفة تقدمت منه لترى النبض المتوتر في جبهته.

«أعلم.» بلعت ريقها بصعوبة. «لكن يجب أن أكلمك.»

بدا انفجار ضحكته قاسياً. «هذا سيء. أنكر أنني كنت بحاجة للتحدث معك فتركتِ البلدة بأسرها. هذا ما سأفعله الآن.»

أدار ظهره، وراح يحضر نفسه للرحيل. لم تكن لتدعه يفعل.

«أنا مغرمة بك.» اعترفت.

استدار نحوها بحقيبة كبيرة في يده. «دعك من ذلك. أنت الوحيدة بين من أعرف التي لا تفهم هذه الكلمة، ولا كيف تقولها.»

لو لم تر اللوحة في مكتبته، لكانت غادرت محطمة تحت تأثير رفضه، لكن الغريزة الأنثوية أبقتها مكانها.

بجرأة كبيرة، قالت: «أكهذا تحتفظ بصورة كبيرة لي في مكتبتك؟»

تراجع رأسه. كان سؤالها آخر ما يتوقع. «كيف علمت بأمرها؟»

«ذهبت إلى منزلك فور وصولي من المطار صباح أمس، وأنا أريد التحدث معك. أدخلتني نليا إلى مكتبتك لأجري اتصالاً، فرأيتها.»

اشتدت قبضته على حمالة الحقيبة الكبيرة. «ماذا تريدين، كورتني؟» هزتها شراسة صوته.

«أريدك.» تردد اعترافها في الهواء الرطب بينهما مثل برقية حية. لمّا لم يجب، تقدمت وقالت: «ستغيب الشمس، يا جوناس.»

«وماذا عساي أفعل؟ سأغادر بعد دقيقة. فتحظين بالمكان لنفسك.» وراح يرمي أغراضه في الحقيبة الثانية.

لم تعرفه هكذا. كان دائماً الشخص الرابط الجأش. لقد شجعها اضطرابه على المضي في مخططها، برغم أن قدميها هي أيضاً راحتا ترتجفان.

«لا تقل لي أنك نسيت رقصة الذرة.» وبختته بلطف.

www.liilas.com

«عمّ تتحدثين؟» كاد يمزق القماش المشمّع من على الروافد.

«إن للغروب مكانة خاصة في ثقافة الميكوسوكي. هل نسيت؟»

«أنا أكيد أنك ستنعشين ذاكرتي.» من المفروض أن توصلها وقاحته إلى الطريق المسدود. لكنها التقطت بعض الإشارات التي تنبىء عن قرب انهيار جدار عناده.

كان وجهه قناعاً شاحباً وبارداً. «لا أرى سبباً لهذا.» ركع على أرض الكوخ ليطوي كيس النوم خاصته.

«في الأمور المتعلقة بالقلب، تقدر المرأة الميكوسوكية أن تكسر التقاليد وتسعى وراء حبيبها. رقصت معي في الاحتفال. جاءت لورا كي أقاربك في الكوخ. جئت لأجلك، يا جوناس.»

توقف عما يقوم به، وألقى نحوها نظرة لم تقدر أن تفسرها. «هلا رددت هذا؟»

أخذت نفساً عميقاً، ونظرت في عينيه الغاضبتين. «اخترتني في طقس الربيع، ورقصت لك. الليلة آن أوان زواجنا. لقد أعلمت شيوخ القبيلة. لقد مشيت عبر الترايل إلى هنا. أنتظر أن تقول لي إنك سعيد بمجيئي.»

التمعت عيناه، لكنه تابع بهدوئه. «أخبرتني أنك رقصت بسبب فرائك بيرد.»

«قلت هذا لأنني خفت أن أقول لك الحقيقة.»

«ما هذه الحقيقة؟» سأل بالحاح، وهو يعقد ربطة كيس النوم.

توهجت عيناها. «إنني أحببتك منذ أول لحظة تعارفنا

فيها. ليلة رقصة الذرة قلبي كان مليئاً بحبك. أريدك أن تعلم كيف أحس، وإلا أموت.»

توترت معالم وجهه. «لقد طردتني من بيتك ليلتها.»

«توسلتك كي تبقى.» صححت ما قاله: «أنت من تراجع.»

«وتعلمين السبب!» صاح بها.

«ربما لن نهتم إذا حصلنا على طفل.»

وقف على قدميه ببطء. «كنت أعتقد أن زواجنا أمر محسوم. كنت سأسعد لو حملت مني.»

ارتفع صدرها وانخفض. «الآن تفهم الألم الذي سببته. أردت طفلك أكثر من أي شيء آخر في العالم!»

«متى حصل هذا التغيير المفاجىء؟» قال ساخراً.

«لا تعلم أنني كنت أصلي كي تطلب مني الزواج، قبل سفرك إلى واشنطن؟» سألت بصوت مرتجف. «لكنك لم تفعل.»

«كنت أريد التقدم بطلب يدك عندما تأتين إلى واشنطن. وكان تعييني مديراً هدية زواجنا.»

«جوناس...» صاحت بنعومة: «وكيف لي أن أعلم؟ خاصة أن أباك قال إنك ستترشح لمنصب حاكم الولاية، وإنك ستتزوج لورا. لقد صدمت. بدا كل شيء نهائياً.»

«تدخل أبي في حياتي كثيراً، وراح يخطط مستقبلي. لكنه بإعلانه هذه الأمور تجاوز الحد.»

«الآن تعلم كيف سهل علي أن أصدق ما سمعته من راينور وهو يحدث لورا... إنك تستغل القبيلة لتجمع المال من أجل حملتك الانتخابية. لورا لم تنف ذلك. ثم تحدثا عني. قالت إنني لم أكن عقبة في طريقها. وقالت

www.liilas.com

إنك تتمنى أن أترك المؤسسة قبل عودتك من واشنطن.»

قال جوناس ثائراً: «طوراً تكون ابنة صديق والدي، الذي مات منذ أعوام خلت. أخذ أبي على عاتقه الاهتمام بها، وتأمين مستقبلها. وفي وقت ما تفاهما على زواجها مني. وتلك كانت بداية خصامنا.»

صدقته كورتني. تقدمت منه. «أعلم أن كل شيء كان كذبة. بدأت أعي ذلك، والحديث مع أمك أقنعني زيادة.»

«هل تحدثت مع أمي؟» لقد فوجىء. «متى؟»

أخذت منطلقاً جديداً، خاصة أن الليل راح يزداد سواداً، وعلمت أنه يصغي إليها. «منذ أسبوعين. اتصلت بالمؤسسة لأسأل عن أبيك، وتركت رقم ليندا عند السكرتيرة سيلفيا. طلبت منها أن تبقيني على اطلاع على حالته. لابد أن سيلفيا أعطت أمك الرقم لأنها اتصلت بي عند ليندا لتشكرني على الزهور التي أرسلتها لأبيك.»

حك جوناس ظاهر رقبته. «لقد أحب أبي هذه اللفتة الكريمة منك. فهو كان نادماً على ما قاله أمامك. لم يقصد أن يجرحك. لكن طموحه في ما يخص مستقبلي أعماه تماماً. جعلته نوبته القلبية يغير من موقفه. لم أتوقع لهذا التغيير الحدوث.»

«أنا سعيدة.» همست، وهي تشكر الله لأن جوناس وأباه تصالحا. «قالت أمك الشيء نفسه لي. وقالت إن أمور النهود تهمك منذ كنت في كلية الحقوق. وإنك وجدت عمل حياتك. هل ستسامحني على شكي بك؟»

مرّ صمت طويل. «أفهم الآن أنني أخطأت بانتظاري حصول التعيين في الوظيفة الجديدة كي أطلب يدك. هذا

التصرف جعلك ضعيفة. لكنني كنت أريد جعل كل الأشياء في مصلحتي، كي لا يكون لك أي تحفظات علي!»

«تحفظات؟» كانت مندهشة. «أردت أن أتزوجك مهما كانت الظروف. كنت أخشى أن يكون هناك شيء ناقص قد يجعلك تتردد في طلب يدي. كنت أفكر لم قد يفشل زواجنا. طلاق أبوي مثلاً. أحبا بعضهما كثيراً، لكن أبي قال إن خوف أمي من الفشل أخفق الزواج.»

«لست أمك، يا كورتني. وضعنا مختلف.»

«قالت ليندا الكلام نفسه.»

«ليندا امرأة ذكية. المهم أن تصدقي أنت هذا الكلام.»

«أنا... أنا لم أكن لآتي إليك لو كنت أشك لحظة.»

أحاط بها توتر غريب ومؤلم. تلفت جوناس حوله، كأنه يعي ما يحيط به لأول مرة. «أين الكانو خاصتك؟»

«خلف الهضبة.» أجابت، وقلبها في حلقها.

تأملها بعينيه لفترة طويلة. «وعدتك؟»

«في الغابة خلف الكوخ.»

شهق بأنفاسه. «سأفكر بأغراضك بعد شهر، لأنني أحتاج لهذه المدة كي لا أفعل شيئاً سوى أن أكون معك.» تردد صدى صوته في أعماقها. «هل هناك كلمة سحرية أقولها كي تعبري عتبتي؟»

«جوناس.» كادت تبكي وهي تتقدم نحوه، وقدماها ما تكادان تلمسان الأرض. ألقت بنفسها بين ذراعيه وتعلقت به.

«حبيبتي.» صرخ بعذوبة، ودفن وجهه في شعرها، وقد جذبها من على الأرض ليضمها إليه. «زوجتي، حبي.»

www.liilas.com

طاف فمه محموماً على وجهها، طابعاً قبلة على وجنتيها.

«يا سوكلاتيكي الجميلة. ظننت أنتا خسرنا بعضنا. جئت إلى هنا أبحث عن الوحدة كي أقدر أن أتصور غدي بدونك. ظننتك رحلت إلى الأبد. لكن الغلايدس ملأى بك. حيثما نظرت، كل ما أرى، والمس وأشم ينكرني بك.» ارتجف صوته: «لا تتركيني مرة ثانية، لن أتحمل.»

«ولا أنا.» فتشت عن وجهه لكأن عناقه أعاد إليها الحياة. «سامحني على إيذائي لك.» همست عندما قدرت أن تأخذ نفساً: «لن أؤذيك عمداً مرة ثانية.»

«حبيبتي...» داعب شعرها برقة. «... قبل أن نبدأ شهر عسلنا علينا أن نتحدث عن منحتك.»

«ليس علي قبولها.»

جمدت يداه في شعرها. «بل عليك قبولها. أعلم أنها مرتبطة بوعد قطعته لأمك أن لا تنسي ما يربطك بثقافتك. وهناك وظيفة أستاذة في جامعة تنتظرك متى انتهيت من الدرس.»

«لا يمكنني تركك لثمانية عشر شهراً. ليس الآن.»

«سوف نتدبر الأمر، فنتبادل الزيارات في نهاية الأسبوع. سيكون لنا شهر عسل كلما التقينا.»

كاد قلبها يطفح من السعادة. «هل تفعل هذا من أجلي؟»

جوابه كان ضمها بين ذراعيه. «وقعت في غرام اختصاصية بعلم الإنسان. وثمانية عشر شهراً ستمر، ثم نكون معاً دائماً. كيف ترين تقسيم وقتنا بين بيتنا في شاطىء ميامي وهنا؟»

«رائع، لكن...»

«لكن ماذا؟»

«ماذا لو حملت؟» همست.

أجابها بضحكة خافتة. «هناك وسائل للاتفاق على هذا الاحتمال.»

«لكنني أريد طفلك.» أصرت، ووضعت وجهها على رقبته.

«وأنا أيضاً.» همس في شعرها: «لكن علينا أن ننتظر تسعة أشهر قبل أن نبدأ بصنعه.»

اندفعت خارج ذراعيه. «هل هذا يعني أنك ستؤجل زواجنا إلى ذلك الموعد؟»

خرجت منه ضحكة عميقة. «لا يا سيدة بابن أنت واقعة.»

«كفى مزاحاً. أنا تائقة لك.»

«وتظنين أنني لست تائقاً؟» قال بصوت مشحون بالعاطفة: «فلنوضح أمراً ما. أريد أن أتأكد أننا متفاهمان، لأن ذلك إذا حدث يفوت وقت الكلام.»

لمّا لم تقل شيئاً أعادها إلى ذراعيه، وعانقها عناقاً طويلاً. «أليس هناك ما تضيفينه؟ ما تسألينه؟»

«لا شيء!»

توقف نفسه. «إذاً لقد قلت الكلمة السحرية، يا سيدة بابن.»

فيما كان يبعدها عنه.

«ماذا تفعل؟»

«أضيء الفانوس.»

«لماذا؟» همست.

«لأنني أريد أن أتأملك.»

www.liilas.com

كان الضوء قوياً لدرجة أنه كشف احمرار خديها.

«عيناك تلمعان كما في الليلة التي رقصت فيها لي. ارقصي لي مجدداً، يا كورتني. بعض عادات شعب أمك لا تزال غريبة علي، لكن طقوس الحب عندكم تحرك أعمق أحاسيسي. اظهري لي أنني بطلك المحارب.» التمعت عيناه الخضراوان. «أقسم أن أكون هكذا حتى آخر عمري.»

«ساكون راحتك وملاذك. سأعطيك الراحة إلى الأبد. أقسم.»

ارتفع صدره وانخفض. «كل ربيع سنأتي إلى هنا لنجدد قسمنا.»

أضاءت وجهها ابتسامة غامضة. «كل ربيع سأرقص لك. لك وحدك.» تباطأ كلامها «جوناس...»

في اللحظة التالية قرّبها منه ليتعانقا وليحلق قلبان مثل قلب واحد إلى أبعد من الكوخ وعلى الغلايدس الموجودة خارج مسار الوقت، والتي جمعتهما في البداية، وستبقى دائماً جزءاً من مستقبلهما.

تمت

طقوس الحب

ريبيكا ونترز

كانت كورتني تحترم بعمق تراثها الهندي الأميركي برغم أنها كانت تقيم في مدينة ميامي، وكثيراً ما كانت تقوم بزيارة مستوطنة أقرغلايدس التي يلفها الغموض، لتشاهد عائلة أمها، التي لا تزال تعيش حسب الطقوس القديمة للقبيلة.

الآن، تلجأ كورتني ثانية إلى هناك، لتهرب من جوناس باين... الرجل الذي تحب.

بدا جوناس، المحامي ذو النفوذ الكبير، وكأنه يهتم باخلاص بأصدقائها وعائلتها، ولكنها ترتاب الآن في أنه يستغلهم...ويستغلها... لتحقيق مطامحه السياسية.

إنها تتهمه بالخيانة، وتشك في مشاعره نحوها، هل هي، على التأكيد، محقة في عدم الثقة به...؟

www.liilas.com